إرهاصات وطنية ترقى
إلى مرتبة الهرتلة

شريف شاذلي

إرهاصات وطنية ترقى إلى مرتبة الهرتلة / قصص

شريف شاذلي

الطبعة الأولى

اكتب
OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

سارة سرحان

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٤٨٣٩

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٥٤- ٤

إرهاصات وطنية ترقى
إلى مرتبة الهرتلة

شريف شاذلي

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء

إلى أبي الفاضل.. العظيم.. الرمز في زمن ذابت فيه الرموز..

إلى أمي الحبيبة التي لم تعرف لعطائها العظيم نهاية.. إلى

أخي طارق.. العقل والقلب الذين بهما أستنير......

إلى زوجتي الحبيبة التي ملأت كل ذرة في حياتي بالمشاعر

التي بها أعيش.. إلى ابني.. (يوسف).. سر حياتي وروحي

ونقطة رجوعي إلى معاني الأمل والحب والحياة...

وأخيرًا إلى رفاق العمر والأصدقاء.. وإلى كل من وقف بجواري

حين كنت في حاجة لذلك وحين لم أكن...

إلى كل هؤلاء الكبار في حياتي.. أهدي هذا العمل الصغير...

مع كل الحب.....



العتمة

كان (حامد عبد الصمد) ريفيًّا.. أكثر من الريف نفسه.. كان اسمه أكبر من عمره.. كان في حضن الخامسة عشر لم يتجاوزها.. بشرته السمراء مشربة بحبات العرق.. طوال الوقت وكأنها الندى يتكاثف على جبينه الدافئ.. عيون ثقيلة غائرة كالصقور وجسد نحيل صلب تعصره الأيام فقط لتدرك مدى قوته وأصالة معدنه.

كان (حامد عبد الصمد) رجلًا حين تحتاج إلى الرجال.. كان يتكلم كرجل.. يغضب كرجل.. يعفو كرجل.. ملامحه الشامخة محفورة في بشرة الطفل البريء بقبضة الشمس وعافية الأرض وشدة المعيشة.. كان (حامد) يعرف بالضبط أين خلقه الله.. ليس أعظم الناس.. ليس أقواهم.. لا يفرد جناحيه من فوق الجبال فوق أحلامهم ومصائرهم.. لكنه يعرف كذلك أنه هو.. يملك نفسه ولا يملك غيره.. لكن كذلك لا أحد يملكه من الناس.. وهذا عدل.. كان (حامد) شابًّا علمته أرضه كيف يفكر وماذا يقرر.

كان يعيش في بيت ريفي صغير.. وكان أبوه رجلًا ذا احترام وجلالة.. لم يكن غنيًّا.. بل كان الفقر أقرب إليه من

الغنى.. لكنهم كانوا في المكان والزمان اللذين لم يكن فيهما زفاف المادة بالمكانة والتقدير قد أعلن بعد.. كان الرجل يصنع اسمه.. وكان عرقه ورجولته هي لبنات العرش الذي يعتليه الناس.

كان (حامد) هو الشقيق الأكبر.. وكان لهذا منذ وعت عيناه الحياة ثمن،...

هكذا تعلّم.. حين رأى أخاه الأصغر يتعارك لأول مرة مع صبية الطريق.. ضخام أشداء لمن في مثل هذا العمر.. أشياء لم يحسبها كثيرًا وهو يندفع بين ثعابين الأذرع فيضرب ويُضرب.. يدفع أخاه خلف ظهره كي يحتمي به ويقاتل كالمجنون.. تعلّم لأول مرة في حياته كيف يغضب ويقاتل لكرامة أخيه وله.. وشعر باحتماء أخيه به فزاده ذلك قوة واستبسالًا.

وحين عادا إلى الدار تعلّم كذلك أن رجولته الوليدة لا تنتهي عند قبضة يده.. تعلم في سنه الصغيرة كيف يدافع بمنطقه عن نفسه وعن أخيه أمام أبيه الصارم ونظراته التي تذيب الصخر.. لم يكن يفهم، لكن رجولة عقله الميكرة وجدت طريقها إلى روح أبيه، فوجد نفسه على غير العادة لا يبادر بالضرب والتهديد.. وجد نفسه ولأول مرة يستمع إلى ولده الأكبر.. وجد نفسه يخفي بين أخاديد وجهه العابس ما دبَّ

في قلبه من رضا عن ابنه الذي صار رجلًا قبل الأوان.. عرف الولد الصغير بفطرته أن أباه قد قدّره.. فوجد نفسه يتحدث إلى أخيه ويقومه.. يفهم أسبابه وينصحه.. كانت المرة الأولى التي تنسَّمتُ فيها نفسه روح الرجولة.. وعرف منذ هذا الوقت أن نفسه ليست ملكًا قاصرًا عليه، بل هي ملك من يحتاج إليها.. هكذا عرفه أقرانه وتعلموا أن يحتموا به.. يستعينون به ويستمعون إلى عقله.. كانت جلسة الولد الصغير بين أقدام والده وأصحابه ليستمع إلى حديث الكبار هي هوايته الوحيدة التي يملأ بها وقته الطويل، بعيدًا عن لهو الصبية حول الأشجار ووسط التراب.. في البداية لم يقدر والده هذا بأكثر من قدر طفل متعلق بأبيه، لكنه لم يلبث أن رأى بمرآة روحه الخبيرة ذاك البريق البادي في ملامحه، وذلك الشغف المرتسم على خطوط وجهه، الذي يعكس ألسنة اللهب كصفحة ماء صافية فيزداد سرورًا ورضا عن ابنه الكبير.. هكذا كان الفتى لا يفوت حديثًا من أحاديث الرجال، حتى اعتاد أن يختلي بوالده بعد أن ينفض المجلس ليحدثه في هذا وذاك.. هكذا صار الفتى رجلًا قبل الأوان.. وقبل أن ينبت شاربه على ملامحه العذبة كان قلبه قد تشرَّب برجولته، وصار عقله هو حاكمه.

تعلّم الفتى الكثير.. وصارت صحبته تتعدى سنه.. تعلم وهو يزحف فوق درجات الحياة كيف يقدر.. ومتى يعفو..

تعلم أن تسعده ثقة الناس به، ولكنه تعلم أن يسعد أكثر حين يكون أهلًا لمسئوليته.. كانت قمة نشوته حين يرى هذا في أعين الناس.. حين يسمعهم يرددون الكلمة التي طالما شعر بها تتعدى حدود الفهم لتصل مباشرة إلى قلبه.. كلمة "راجل"...

هكذا كان دائمًا يفكر.

وهكذا فكر حين مرض أبوه.. وحين اشتد الفقر بهم جميعًا.

كانت ليلة شديدة البرودة، وكان أبوه يتدثر بغطائه الصوفي الخشن في حضن النار.. اقترب منه (حامد).. صوت طرقعة النار من أمامه وحفيف الأشجار من حوله.. افترش الأرض إلى جوار أبيه ومال عليه في بطء:

"آبا"...

رفع أبوه الغطاء عن رأسه واستدار إلى ابنه في بطء حتى تكاد تسمع لمفاصل عنقه صوتًا وهي تتحرك.. يخرج صوته عميقًا من كهف صدره المريض فيبدو كحشرجة:

"أيوه يا (حامد).. خير".

"يا آبا طاوعني.. احنا لا عندينا لا طين ولا مواشي، غيرش شوية البط والوز دول كنا متنا من الجوع".

"لا يا (حامد).. انتا لازمن تكمل تعليمك يا وَلَدي".

يقترب منه الفتى أكثر ويضغط على كلماته:

"يا آبا تعليم إيه دلوكت؟.. أنا فلاح ابن فلاح، وعمرى ما هبجى موظف حكومة ولا خوجة.. يبجى هاعمل بيها إيه الشهادة؟.. ثم أنا خدت الاعدادية خلاص، هعوز إيه تاني؟"

يتأمله والده والحيرة تنهشه.. كان (عبد الصمد) من القلة القليلة التي كان لها نصيب من التعليم في تلك القرية المنسية.. كانت الابتدائية بالنسبة لهم هي الشهادة الكبيرة.. لذا كان الناس يلجأون إليه طلبًا لعلمه وحكمته، ولذلك أيضًا كان يتمنى لابنه أن يجله الناس أيضًا.

"حتى لو طاوعتك في كلامك ده مش هسيبك تمّلنا وتسافر".

"يا آبا.. هما ستتين في الخليج يخرجونا من الحال اللي احنا فيه.. ونشترى حتة أرض ونرتاح.. مش هيجرى حاجة".

ثم يدنو منه أكثر.. يحاول ويحاول بينما الأب الباسل يمتنع.. لم ييأس (حامد).. رتب حاله على السفر وترك لأبيه الكلمة الأخيرة.. تكاثرت الضغوط على الرجل المريض حتى انهارت إرادته.. وكان ذلك هو نفس اليوم الذى أعد فيه (حامد) حاجاته للسفر.

لم يستغرق الأمر لحظات وكان (حامد) قد غادر القرية.. كان معه (ياسين) الذى دبر له كل شيء وأصر أن يوصله بنفسه..

هكذا فعل (حامد) ما أراد.. وما لم يرد.. كان يعرف أن للرجولة ثمنًا باهظًا.. ثمنًا لا يُدفع مرة أو اثنتين، لكنه يدفع إلى الأبد.. حتى النفس الأخير.

هكذا ترك جسده يتمدد داخل عربة النقل والهواء البارد يلفحه من كل اتجاه.. يهتز جسده جرَّاء الطريق كطفل في المهد ويغيب في قوقعة من الأحلام.. يحلم بكل شيء.. أسرته وأقرانه.. شاطئ الترعة المهمل وظل أشجاره.. يحلم بطفولته ومدرسته.. يحلم بالماضي؛ لأن عقله الحائر لا يعرف للمستقبل أية احتمالات، ولا يملك على غده أية رهانات.

ثم عرف أن الصباح قد جاء حين لفحته الشمس...

أنزله (ياسين).. وأرشده إلى سيارة النقل التي ستقله، وعرَّفه على (زاهر) الذي سوف يحمله إلى المراد، ثم ودعه وانصرف.

شعر (حامد) بالرهبة.. لكنه - كرجل - أمسك لجام نفسه نفسه كما تعود أن يفعل، وقفز في مرة واحدة إلى صندوق السيارة.

كانوا - تقريبًا - عشرين فردًا بخلافه.. كانوا جميعًا من لونه وجلده، وإن اختلفت الأعمار والأشكال.. وكان بينهم شد وجذب في الحديث منذ فترة ليقهروا دائرة الانتظار.. وكان منهم من يغني...

كان فقط يسمع...

كانت الدقائق شديدة البطء.. شديدة القسوة.. صوت الأنفاس من حوله تخرج من صدر هذا فتلتقطها أنفاس ذاك.. نهار يبدو بلا نهاية، وكذلك الكلام من حوله.. وجد نفسه يتمدد بين الأقدام ويغفو.. يمد جسور نومه ليعبر به الأوقات الطويلة كي تنقضي...

الأصوات حوله لا تتوقف.. حتى تعالى صوت المحرك وبدأت حركة الجسم الثقيل تهتز يمنة ويسرة.

همهمات بالبسملة ودعاء السفر من حوله.. مزيد من الأحاديث.. لكنه لا يفتح عينيه...

يتنهَّد.. يفكر.. يغلبه النوم لوهلة.. تَرُجُّه يد الطريق فيفتح عينيه مجددًا.. يتأمل السماء.. ثم يترك جسده المكدود لمزيد من النوم...

يشعر بالشمس وقد بدأت تنصرف.. تنسحب في شمم تاركة القمر كي يلهو ويفرش مسرح عرائسه على مائدة السماء.. يفتح عينيه المتثاقلتين فيميل عليه وجه أسمر شاب.. يضحك ويقول:

"إيه؟.. صحّ النوم.. أنت هتقضيها تسطيح ولا إيه؟.. تدخَّن؟"

"ألف شكر يا ريِّس".

يفرك عينيه في تعب ويسأل:

"إحنا وصلنا فين؟"

ضحك الشاب بجانبه.. ضحكة مهزومة.. سحب من سيجارته المشتعلة بأقصى ما يستطيع، ثم نفث ما في صدره في الهواء وقال:

"إحنا في صحرا يا عم الحج.. مفيش فيها فين ولا منين؟"

"وبعد الصحرا؟"

"هنركب البحر.. وعلى الله".

ثم ناوله زجاجة ماء وقال:

"خد بل ريقك".

تناولها (حامد) واعتدل ليستند على طرف الصندوق.. تجرَّع منها ثم مسح فمه بكم ثوبه:

"تِسْلَم".

عرف أن الشاب اسمه (منصور)، وأنه من ريف الدلتا.. وأنه متزوج وله ولد وحيد.. كانت محادثة قصيرة عن صعوبة المعايش.. عن الأهل والمسئولية والعمل في الخليج.. وعن المستقبل حين يصبح المستحيل ممكنًا.. كلام كثير لا يضر ولا

ينفع، لكنه يلتهم أوقاقم العصيبة، ويقصر المسافات التي تبدو بلا نهاية...

الهواء البارد يصفع الوجوه.. يصفر في آذان الحمقى والأبرياء بالويل والوعيد.. يبعثر دفأهم في كل اتجاه ويمضي في الليل الطويل حتى نهايته.. ينام من ينام ويسهر من يسهر...

في النهاية جاء الصباح.. هذه سنة الحياة...

أيقظه (منصور)، ثم انساب الجميع من خارج الصندوق، إذ أعلنت الناقلة نهاية رحلتها، واستدار سائقها استعدادًا للانصراف.

فقط هبط منها (زاهر) ليقودهم إلى الميناء وينهي ما يلزم من إجراءات.. وذلك قبل أن ينصرف معها.

تركهم يشعرون بالتيه، لكنهم واصلوا الطريق.. كان معهم عم (علي)، وكان في قرابة الخمسين من عمره.. كان قوي الشكيمة، وبذلك صار القائد...

وصاروا خلفه...

عرف (حامد) ساعتها كلمة المشقة.. وشعر أن معدن رجولته قد جاء ليُختبر.. كانت رحلة جحيمية منذ اللحظة الأولى.. انحشرت الأجساد وسط الحقائب والمتاع.. وترك كل جسد نفسه ليشغل ما يلزمه من مساحة مشتركًا مع غيره من

الأجساد.. ذابت الذات.. وذابت معها الكرامة.. وبقيت الأحلام وأهداب المستقبل تداعب العقول وتهون الوقت وساعات الانتظار.

شُحنت الأجساد كالبضاعة.. ومرت الساعات وكأنها تتسابق على المركز الأخير.. لكنها في النهاية مرت وأخذت معها اللحظات المهينة....

***

حين انتهت رحلتهم أخبره (منصور) بأن (أبا الوليد) هو اسم الشخص الذى سوف يستقبلهم هنا.. وهو نفسه المقاول صاحب العمل.. لم يهتم (حامد) كثيرًا بالأسماء.. واعتبرها معلومة لادعاء العلم لا أكثر.

لكن.. لم يكن هناك أحد في الانتظار...

ارتجف الشاب لهول أن تكون تلك خديعة.. تذكّر كلمات (ياسين) المطمئنة.. لكنه لم يكن مستعدًّا لتصديق أي شيء غير الذي يراه الآن.. قال عم (علي) ليطمئن الجمع أنه يعرف كيف يصل إلى الرجل.. قال إن الهاتف معه.

هاتفه بالفعل...

غاب لوهلة ثم عاد.. كان وجهه مكفهرًّا.. قال لهم إنه وجد (أبا الوليد).. وإنه تحدث إليه.. قال إنه كان مشغولًا

بشدة ولم يستطع الحضور.. ثم أملاه عنوانًا وقال له أن يأتي إليه مع الرجال.

لم يُجب أحد...

فقط تكلم (منصور) بعد برهة وأمرهم أن يتقاسموا مبلغًا يمكّنهم من الوصول إلى العنوان.. تردد البعض.. لكنه كان الحل الوحيد.. كان الكل يحسبون الحسبة حتى لا تنفد أموالهم الشحيحة في الغربة.. لكن الصحراء الممتدة من حولهم كانت كفيلة بإقناع أي إنسان...

انصاع الجميع...

ثم راح عم (علي) ينساب على الطريق هنا وهناك بحثًا عن وسيلة.. مرت لحظات.. دقائق.. ساعات.. حتى نجح القائد المرتجل في مهمته.. وتأكد أن الجميع قد ركبوا.. ركبوا أي شيء.. ثم ركب خلفهم وراح يدعو الله ويقرأ الفاتحة...

كل هذا و(حامد) لا يقوى على الكلام.. أصابه الجزع وهلة.. لكنه طرده خارج أسوار أفكاره.. واستعاد ثوب الرجولة من جديد.. يتذكر لماذا جاء إلى هنا.. فينتفض جسده برجولته المبكرة.

لكنه - حين وصلوا - لم يفهم...

كان النهار قد أوشك على الانتهاء.. وكان المكان بناية جديدة تحت الإنشاء.. ولم يكن هناك ما يدل على وجود بشر...

نزل جميع الرحال يقدمون قدمًا ويسحبون أخرى.. لا أحد يفهم.. التفتوا لعم (علي) ليتأكدوا من العنوان فأكّد.. عاد بعض الشباب يراجعه ثانية في عصبية - ومن بينهم (حامد) - لكنه عاود التأكيد.

"إيه العمل يا عم (علي)؟"

شعر الأخير بالتيه ولم يرد.. انتظر وفكر ثم اقترح أن يمضوا الليلة داخل جدران هذا المبنى.. اعترض البعض.. لكن صوت العقل تغلب في النهاية.. كانوا على طريق صحراوي مقفر دون أثر للمدينة.. وكان الليل قد جاء متسحبًا إلى الدنيا.. كذلك بقت بارقة أمل أخيرة أن يكون الرجل قادمًا إليهم في الطريق وأنه قد تأخر فقط.. كلها احتمالات ومخاوف.. وكلها كانت تلاعبهم كأذرع الأخطبوط لتبقيهم في محيط مكانهم حتى الصباح.

كان (حامد) ممن قرروا البقاء.. كان يعلم أنه من المحال أن تتحرك مترًا خارج هذه الحدود؛ لأنك - حتمًا - ستضيع.. وكذا قال الكثيرون...

هكذا تمدد كل منهم في مساحته.. وأخرج متاعه ليغطي نفسه من برد الصحراء كيفما اتفق.. تأمل (حامد) السماء بنجومها من فوقه وابتسم رغمًا عنه.. تذكرها حين كان يفترش سطح منزله.. وعرف أن السماء هي السماء.. والنجوم هي النجوم في كل الدنيا.. حتى لو رحل عن هذا الكوكب بأكمله.

***

الفجر جاء.. الآن ظهر.. والآن يتكلم...

"حمدًا لله على السلامة يا رجال"..

يقول (أبو الوليد).. جاء في صباح اليوم التالي وراح يلملم أشلاءهم من بين ثنايا البنيان.. شعور بالارتياح من جهة.. وشعور بالسخط والإهمال من جهة أخرى.. تحدث لهم الرجل قليلًا بعبارات ترحيب مستهلكة.. ثم أمر لهم بكوب من الشاي.

كاد (حامد) أن ينفعل على الرجل.. لكن (منصور) أمسك يده في اللحظة الأخيرة.. نظر إليه (حامد) سخطًا فترك (منصور) يده ومال عليه.. "أكل العيش يا ابن والدي.. اصبر".. تماسك (حامد) وقرر أن يحفظ لنفسه ولرفقته فرصتهم في هذا البلد.. فقط لمحه (أبو الوليد).. فهمه من النظرة الأولى.. وألقى له التحية بنظرة فهم منها (حامد) تهديدًا واضحًا.

لكنه كان يتكلم بمودّة..

وفي لحظات شرح لهم طبيعة العمل.. ونظام الأجر.. وأخبرهم أن سُكنَتَهم ستكون في نفس المكان.. حدث جدل بسيط حول الأجر.. لكن الرجل عرف كيف يدير عجلة الكلام بحيث ارتضى الرجال الاتفاق دون أن يحصلوا منه على ما أرادوا...

"أبغي أرى الهمة يا رجال"..

انصاع الجميع.. دار كل الرجال في لحظة في عجلة العمل.. كذلك فعل (حامد).. نسي مشاق الرحلة.. ووجد نفسه وقد استثارت جينات الرجولة عقله وجسده كي يثبت للجميع كفاءته وقوة ذراعه.

هكذا صار (حامد) ترسًا في الآلة.. وسارت به الأيام وهو يعمل كالثور.. كان المساء يأتي فترتمي أجسادهم كالجثث.. ولا يعلو صوت فوق صفير أنفاسهم المنهكة.. وسعالهم المكتوم.. لا كلام ولا سهر.. لا طاقة إلا لتدور ساقية النهار واعدة بالمزيد من المال.

ثم يأتي النهار...

كان (أبو الوليد) كثير المرور عليهم.. كانت له عينان كالمرصاد.. فلا تستطيع أن تخدعه.. وكان قد أنهى غرضه من قناع المودة فعاد إلى ذاته وراح يرسل لسانه السليط على كل

الأجساد.. يسب ويلعن ويثور.. لكن الرجال كانوا يعرفون كيف يصمون الآذان.. وكان (حامد) جديدًا على هذا الثوب فلم يفهم.. كان (منصور) يقول له دائمًا أن اصمت.. وكذا كان عم (علي) يأمره.. فكان يصمت ويواصل عمله دون تعقيب.. حاول (أبو الوليد) أن يحتك به كثيرًا.. لكن نظراته الفتية كانت تحكم الحوار أن يتطور.. تعلّم أن يعمل بضمير حتى لا تسنح الفرصة لمثل هذا الرجل أن يعنفه.. كان فقط يشعر بالأسى لهؤلاء الرجال...

هكذا.. أسبوع.. اثنان.. شهر...

كان (حامد) يشعر أن الصدام سيحدث لا محالة.. أخبر (منصور) الذى كان يكره مجرد التفكير في هذا.

جاء الصباح التالي...

جاء (أبو وليد) فلم يجد ساقيته تعمل.. استفهم في غضب فسارت الهمهمات بين العمال.. وجاء دور عم (علي) كي يتكلم.. تكلم عن الأجور التي لم يتسلّمها أحد منه حتى الآن.. وتكلم عن الأفواه التي تنتظر هذه الأموال مسعورة في مصر.. عن الغربة والـ(بهدلة) التي بلا ثمن.. كلام كثير كهذا.. ولم يكن (أبو الوليد) على استعداد لسماع المزيد.. فقط أمرهم بالعودة للعمل.. وأخبرهم متعصبًا أن أجورهم موجودة.. وأنها

تأخرت فقط لأنه الشهر الأول.. وانتهى الحديث بعودتهم لعملهم مع وعد بالحصول على المال في خلال يومين.

راحت الساقية تدور من جديد.. وجرى اليوم الأول.. وقفز خلفه الثاني.. ثم لحق به الثالث كالطلقة.. وأتى الرابع فالخامس....

فاض الكيل بعم (علي) الذى كان بحكم سنه يعتبر نفسه المسئول عن كل هؤلاء الشباب من خلفه.. عاد يطالب بالمال من جديد.. انفعل فانفعل عليه (أبو الوليد).. كان عفيًّا فدفعه وصاح فيه:

"يا نتن.. يا عبد المال.. تتصور أني آكل حقك وحق هالرجال؟.. إني أغرقك بأموالي أنت ومن معك يا العبيد"..

لم يشعر (منصور) إلا و(حامد) قد اندفع من جواره.. حاول أن يمسكه لكن الفتى كان الأسرع.. الغضب العارم يعتريه.. وقد أهين الرجل الكبير هكذا.. ونُعت هو فيمن نعتوا بالعبيد.. يجري على الرجل ويمسك بتلابيب ثيابه كالمجنون.. وجهه الأسمر الحانق كقبضة من نار.. ذلك الغضب الأحمق الذي لا يقدر إنسان على أن يوقفه...

أفرغ (حامد) جعبة ناره منذ خرج من حضن قريته الصغيرة.. نعت الرجل باللص والفاسد والوقح.. لم يصدق

(أبو الوليد) نفسه وراح يسب فتُرد سبته بأقذع منها.. يجري عم (علي) كالملسوع وقد نسي ماله وإهانته.. كان يفكر فقط كيف ينهي هذه المأساة وكيف يصلح ما انكسر.

"أنت يا ابن الكلاب تتطاول على سيدك.. مالك أعطيه إياك على طرف حذائي وتوطي تاخذه كما الكلب.. أني أشتريك أنت وأهلك لكن ما يسوون".

كاد (حامد) الفتى يفتك به.. النيران تجري في أطرافه.. لولا أن كبله القوم من حوله حتى لا يزداد الموقف توحُّشًا.. أطلق الفتى سبة غاضبة.. لكنه لم يقدر على كل هؤلاء الرجال.. شعر (أبو الوليد) بذلك فزاد سبابه وعجرفته.. شعر بقوة موقفه فرفع كفه وهوى على خد الشاب بكل ما يملك من القوة.. صفعة فرقعة كطلقة النار في الصحراء الصامتة.. فتح الفتى عينيه مذهولًا.. وارتعد الناس من حوله من هول الواقع.

وقبل أن يفيق الشاب من صدمته وجد رجال (أبي الوليد) يتكتلون من حوله.. راح جسده يتلوى كثعبان مجروح بين الأقدام والأذرع كي يصل إلى عنق الرجل.. تراجع الأخير.. وكانوا كثرة.. حاول أن ينتقم لكرامته في جنون.. وتعالى صوت سبابه الغاضب.. لكن هذه الكثرة المفزعة كانت قادرة على أن تغلب كل شيء.. كان الفتى رجلًا.. لكن اللعبة لم تكن لعبة للرجال.. هكذا انهال عليه سيل فائض من الضرب الفادح حتى انهارت قوته.. الواقع أنها قد انهارت منذ زمن لكن

كرامته كانت تستميت إلى النهاية.. هكذا سال جسده المجروح على الأرض وهو يتنفس بصوت مسموع.

أشار (أبو الوليد) وأمر رجاله غاضبًا أن يلقوا حطام هذا الإنسان على قارعة الطريق.. ثم صرخ في الرجال يأمرهم بالعودة إلى العمل.. لا عمل لا مال.. تلك هي قواعد الغربة التي لا ترحم..

انصاع الرجال في ذل.. ووجد (حامد) نفسه ملقى على جانب الطريق.. الدوار يكتنفه.. دقيقة ووجد من يلقي له بحاجياته وينصرف..

يسمع من بين الضباب صوت الحناجر الغاضبة.. لكن الأوامر القاسية والأجساد الفتية توقف الجميع عند حد الغضب.. لا شيء أكثر.

ومن بعيد سمع صوت سيارة الرجل الطاغي تبتعد... شعر بعيون العطف عليه و لم يرها.. حرك رأسه في ضعف فرأى عدد من الأقدام تعدو تجاهه.. لكنه نهرهم بيده وعينيه.. كفاه ما حدث.. فقط شعر بيد عم (علي) على كتفه.. والمال في يده.. حاول أن يرفض.. لكن قسوة الموقف منعته من الاعتراض.

انصرف عم (علي).. لم يتكلم.. الأصوات القاسية من بعيد تأمره بمواصلة عمله.. ينهض الفتى ببطء وقد عرف أن رجولته الشابه قد هُتِكت.. وأنه لم يعد كما كان قط.

نهض.. أمسك حاجياته في قبضته.. لم يعرف له سبيلًا.. لكنه سار متثاقلًا على ناصية الطريق دون أن يفكر ولو في نظرة أخيرة على الساقية ورفاق الألم.. وكأن المسرح من خلفه قد غرق في الظلام وغابت عنه الشمس.. سار بلا هدى حتى غاب المشهد الدامي عن أفق بصره.. سقط على الرمال كالسكران.. وشعر وكأن نفسه تنزف في غزارة.. لكن بلا جروح.. شعر باليد القاسية الأليمة تعتصره حتى تكاد أن تزيح الدمع السائل بين جدران روحه من مقلتيه.. يرفض.. يقاوم.. يتمسك بشظايا رجولته.. ويتمالك نفسه.. قرر ألا يفكر إلا بواقعه.. وراح يشير للعربات في استماتة.. سار على قدميه طويلًا طويلًا.. لا يعرف إلى أين يسعى وماذا سيدرك..

أتى عليه الليل.. فافترش الرمل البارد من تحته.. وتسربل كما اعتاد في غربته.. اختبأ داخل غطائه.. وراح يدعو الله وهو يرتجف.

ومضى الليل.....

مضى طويلًا قاسيًا.. وشعر (حامد) بكل ثانية فيه.. جاء الصباح فلملم حاجياته وبقي ينتظر...

انتظر طويلًا.. فقرر مواصلة المشي.

وقبل أن ينتصف النهار كانت عربة نقل قد توقفت له دون أن يتكلم أو يحاول.. كان يسأله عن الطريق؛ فأخبره أنه

غريب، وتوسل له أن يأخذه معه.. تردد الرجل لثانية ثم غلبه كرمه فوافق.. استمع منه الرجل إلى قصته ثم مط شفتيه وعاد إلى القيادة.

لم يدر (حامد) على أي حال كيف وصل إلى مصر.. كان الأمر بالنسبة له معجزة من معجزات الزمن.. لا يدري لو لم يعثر على ذلك الرجل المصرى في الميناء كيف كان سيتصرف.. لكن نصيبه شاء أن تنتهي هذه المأساة بالنسبة إليه عند هذا الحد.

كانت مسألة ساعات ووجد نفسه في حضن أبيه.. كان هشًّا.. ربما للمرة الأولى في حياته.

***

أصر والده على أن يواصل التعليم.. "أنت نفّذت اللي في دماغك.. دلوك أنفذ أنا اللي في دماغي".

انصاع الرجل المهزوم بداخل (حامد) لأمر أبيه.. وعاد الشاب ينساب من جديد داخل قريته الصغيرة.. ويستعيد بعضًا من حطام نفسه...

تقلّبت الأيام على الشاب ونسي ما استطاع أن ينسى.. فقط بقي جرحه بداخل نفسه.. وصار أكثر حدة في الطباع.. حتى أنهى تعليمه الثانوي...

أسعده أن أبهج هذا والده الصبور.. لكنه - كذلك - شعر أنه قد نال من التعليم ما يكفيه، وجاء الوقت كي يتحمل من جديد مسئولية بيته الكبير.. هذه المرة لم يعقّب والده المريض كثيرًا وتركه لرغبته.

كان ذلك حين جاءه استدعاء من الجيش لفترة التجنيد الإجباري.

لم يكن الفتى يفكر يومًا بهذا.. قصة منسية.. شعر بالضيق وصرَّح لصديق له في جلسة على ضفاف القرية بأنه لا يريد أن يبتعد عن أهله مجددًا الآن.. وأن مسئوليته تحتم عليه أن يحمل بيته فوق ظهره عوضًا عن أبيه المريض.. التقت صاحبه خيط الحديث منه.. ونصحه أن يهرب من القرية كي لا يعثروا عليه.. أخبره بأهوال الجيش وتجارب من سبقوه.. ثم عاود نصيحته له بالهروب.. اقتنع الفتى وقرر أن يفعل.. صارح والده لكن والده لم يتحمس.. بل غضب.. وهذا ما لم يفهمه (حامد) للوهلة الأولى.

أخبر الفتى أباه بما يجول في صدره لكن والده كرر رفضه.. قال له كلامًا كثيرًا عن (عبد الناصر)، وعن العدو، وأبطال ٤٨، و٥٦.. قال له إن العدوان قد اقترب.. أخبره عن الرجال والمعادن.. حدثه عن الشهادة.. حدثه كثيرًا عن إغراق العدو الغاشم في البحر.. وكان (حامد) يعرف عن والده حبه للسياسة وانغماسه في أحوال الدنيا على الرغم من مستوى

تعليمه البسيط.. لكن (حامد) لم يكن كذلك قط، ولم يَمِلْ لحظة لسماع أحاديث السياسة التي يتبادلها والده مع كبار القرية كل يوم في ملتقاهم.. طلب من والده أن يهرب بعيدًا بعض الوقت، لكن الأب الطيب أصر على موقفه.. كان الأب الوحيد في الدنيا الذى يدفع ولده دفعًا كي يؤدي واجبه.. أخبره (حامد) بما سمعه من أهوال الجيش؛ فأخبره أبوه عن العدو.. عن الخطر.. وعن وقت الرجال.. أخبره أن الحرب قائمة لا محالة.. وأنه يريد لابنه البطولة والشرف.

كان أبوه مؤمنًا.. كان يحلم لنفسه ولابنه بالشهادة.. أب عظيم ومعدن لا تجده بين الرجال..وكان ابنه رجلًا من معدنه.. خرج من نفس الوطيس حتى وإن اختلفت السبل.. لكنه - (حامد) - كان يعرف لنفسه وطنًا واحدًا.. هو أهله وكان يؤمن بأنهم هم الأولى بذراعه وتضحيته من أي شيء آخر.. ساعتها ذهب (حامد) حانقًا.. انصرف وعزم أن يقوم بما في رأسه ويرحل.. غادر منزله وسار حتى بلغ شاطئ ترعته حيث يحب أن يجلس.

لم يفهم (حامد) كثيرًا من حديث والده.. كان دائمًا يشعر أن قريته هي دولته.. وكان يرى دائمًا - كلما تحدَّث أبوه عن الوطن و(عبد الناصر) والعدو - أن أباه يهتم بوطنه أكثر بكثير مما يهتم هذا الوطن به.. لكنه لم يكن يصطدم به لمعرفته بالعواقب.

الآن هدأ (حامد).. ترك هواء القرية البارد يسري في روحه.. ويذيب قلبه وعقله.. وشعر بسخافة أفكاره.. تخيل أنه هرب.. تخيل حسرة أبيه ولوعة أمه.. وعادة روح رجولته الفتية تمنعه أن يخذل أهله.. لقد رفض الانصياع لأبيه مرة.. وصار عليه الآن أن يقبل بأمره.

قال لنفسه إنه رجل.. ملأ صدره بالهواء.. رفع رأسه للشمس لترسم على وجهه لوحتها ذات اللونين.. وقال لنفسه..هم شباب هش.. هم هربوا من الجيش لأنهم ضعفاء.. لكنه رجل.. والرجل لا يهاب حتى الموت.

هنا نهض وقرر أن يعود لأبيه.. قرر أن يأخذ من فرحة وجهه زادًا لليالٍ طوال قادمة.. ترك ظله خلفه بين الأشجار وسار نحو داره وقد عزم ألا يحرمه ما يريد.

وكما توقع - سُرَّ والده وأجلسه إلى جواره.. كان الليل قد بدأ ينتشي ويسيطر.. بدأ الأب المريض كلامه.. كلام كثير لم يكن الشاب على استعداد أن يسمعه.. لكنه فعل.. كلام كثير عن تاريخ هذه البلد.. عن حرب ٤٨.. عن عدوه.. وعن كرامته.. عن وطنه.. وعن الثورة والرجال.. وجد (حامد) نفسه لأول مرة على استعداد لأن يسمع.. ويسمع المزيد.. وكأنه يسمعه لأول مرة.. أطل الفجر بوجهه الطيب على الدنيا

والرجل ما زال يتكلم.. حتى استشعر (حامد) أن عقلًا جديدًا قد نبت له.. عرف أن له وطنًا.. وأن قريته تلك هى جزء ذائب في هذا الوطن.. وحين جاء الصباح اعتزم الشاب أن يتوكل على الله...

لحظات عصيبة.. لكنه كان يعرف كيف يتغلب عليها.. كان دومًا يعلم أنه رجل.. أنه أكثر رجولة ممن سبقوه.. وأن الأمر سينتهي يومًا.. فيرضي أباه.. ويكون كعادته قدوة للجبناء.. لكنه تعلّم ألا تنفلت أعصابه.. تعلّم كذلك - آسفًا - ألا يتدخل فيما لا يعنيه.. تصور للحظة أن ذلك هو ما عليه أن يفعله.. ذهب وأنهى أوراقه ثم تم ترحيله.

***

انتهت أيام مركز التدريب.. كان متحمسًا لكل ما فيه مران أو رماية.. وكانت رجولته العتيدة تنتشي يومًا بعد يوم كلما شعر بها تُختبر وتثقل.. يستعيد كلمات أبيه.. فيزداد حماسة وإصرارًا.. عرف الناس وعرفوه.. وصار بينهم - كما اعتاد - رجلًا مقدَّرًا.. تعلّم منهم وتعلموا منه.. وعرف أكثر عن هذا الوطن الذي لم يستشعر وجوده من قبل.. لكن الأيام ولّت سريعًا كما تبعثر الرياح أوراق الشجر.. وعاد لقريته ليجد أبوه في انتظاره يستقبله استقبال الأبطال.

كان الفتى راضيًا لرضا والده.. وكان الأب ينتشي كلما سمع أن ابنه قد حمل السلاح.. فقط عرف (حامد) أن للفراق ثمنًا.. وثمنه كان ضيق معيشة الأهل وترك إخوته الصغار لمدارسهم.. لكن الأب عرف كيف يعزل عقل ابنه العائد عن شوائب الحياة.. مرت إجازته في ثوان.. من ثم جهز حاجياته وعاد إلى حيث كان.

وحين عاد إلى المعسكر كان توزيع العساكر قد بدأ...

وجد (حامد) نفسه ينسلخ من جديد عن الوجوه والأماكن.. حمل مخلته الثقيلة على كتفه ومعه مجموعة صغيرة إلى حيث يستقر بهم المطاف.. الناقلات تتأرجح في الطريق فتعيد له ذكريات يكرهها.. لكنه الآن في وطنه.. ووسط قوم من لونه وطينته.

كانوا جماعة.. وكانوا كلهم - تقريبًا - من الصعيد.. تعرفوا سريعًا وتركوا الباقي للأيام.. كانت الدنيا في وضح النهار فلم ينم أحد.. وذابوا جميعًا في خيالات عقل واحد.. عقل يفكر متأرجحًا بين ماضٍ ولَّى ومستقبل يكتنفه الضباب.. في النهاية توقفت ناقلتهم أمام باب المعسكر الجديد.. فأفاقوا من أحلامهم وراحت أجسادهم الفتية تسيل منها كأنها تنبت من بين عاصفة الرمال.

كلمات قصيرة عند البوابة.. ثم تقدم شبان فارعو الطول عرفوا أنهما من الشرطة العسكرية ليقوما بالتفتيش.. كانا يتحدثان في غلظة مبتذلة وأيديهما تضرب بأكثر مما تفتش.. هكذا ثم أشار لهم أحدهما كي يجلسوا عند الرصيف هناك وينتظروا.

مرت ساعات من الانتظار.. لم يفهم أحد سر هذا الوقت المهدور.. لكن (حامد) كان مؤمنًا بأن الصبر من شيم الرجال.. لم يكن يحب أن يتأفف كأقرانه.. وكان يشعر أن في ذلك نوع من الميوعة والتخاذل.. مرت الساعات حتى انتصف النهار تقريبًا.. ثم أشار لهم عسكري رديف أن يتبعوه ففعلوا.. حمل كل منهم مخلته وسار خلف القائد الجديد منصاعًا.

"بلاش لكاعة من أولها.. معسكر الاستقبال على مسافة ثمانية كيلو".

تصاعدت أنفس الاستهجان في أعماق الجمع.. لكن (حامد) الشاب لم يفعل.. كان يرى في كل ذلك تحديًا لرجولته.. وكان يرى في استهجان زملائه تأكيدًا لذاته ونصرًا له.. كان أول من يسير.. وكان الأسرع من بين أقرانه.. لكن الرديف لم يلاحظ شيئًا.

العرق يسيل.. الأنفاس ثقيلة.. الظهور تنحني.. (حامد) يسحب من الهواء إلى صدره ما يؤجج فيه نيران رجولته

فيتحمس أكثر.. ويصبر أكثر.. أمتار وأمتار.. حتى قاربت المسافة على الانتهاء.

لكن زملاءه كذلك بدءوا في السقوط من حوله وخارت قواهم.. كانوا يتنفسون بصعوبة.. حتى هو شعر بالكلاب تنهش عضلات جسده الواحدة تلو الأخرى.. لكنه أصر أمام نفسه ألا يبدي ضعفًا أو انهيارًا.

بدأ الرديف يلعب معهم لعبة الحر المسيطر.. راح يسخر منهم ويشكك في رجولتهم.. ينعتهم بالأنوثة تارة.. ويطلب منهم ألا يغادروا أكناف أمهاتهم تارة.. لم يعد (حامد) على استعداد لأن يخطئ ثانية.. تعلم الدرس القاسي.. وتخيل أن الكلام لا يشمله.. هو رجل.. وهو في المقدمة.. فلماذا يهتم؟

"(حامد).. استنى يا (حامد)".

سمع صوت (أسامة) من خلفه.. كان شابًا من أهل المدينة.. عرف عنه من كلمات النهار القصيرة أنه مدرس.. وأنه ابن تاجر كبير في المنصورة.. ولم يكن مظهره الراقي يتلاءم قط مع ما هو فيه الآن.. كان يحتاج لأن يصير رجلًا وقد جاء إلى حيث يُصنع الرجال.. هذا ما جال بفكر (حامد) حين رآه.. لكنه لم ينكر شعورًا بالشفقة وقد أبصره يسقط بحمله على الأرض.. أخذته رجولته من يده ليعين الشاب على سقطته ويعيد المخلة إلى ظهره..

"مَلَكش دعوة بيه.. خليك في حالك يا عسكري لاحبسك".

لم يكن (حامد) أو من حوله يعرفون كنه هذا الرديف ولا مدى ما يملك من مقدرة.. هكذا تراجع كما أمره وشعور بالخزي يدمي قلب رجولته في قسوة.. فقط أعانه على أن يرفع حمله وانصرف عنه.. كان درس الماضي قاسيًا.. ولم يكن على استعداد لأن يتعلم المزيد.. قرر أن يتنازل عن قطرة من رجولته في سبيل بحر من كرامته.. وسار كما كان على الطريق.

ثم ظهرت العنابر من بعيد كأنها آبار من الرحمة.. تزداد العزيمة فتتسارع الخطوات الملهوفة المنهكة.. تضربهم الشمس بأذرعها الطائلة.. لكنهم كانوا كالمخدَّرين حتى بلغوا مكانهم.. تتساقط أجسادهم المثقلة بجوار العنابر ومعها أبدان مخلهم المكدسة.

صوت أنفاسهم المنهكة والرديف يقف على رؤوسهم في رضا.. ينصرف إلى أحد العنابر ويغيب.. تاركًا أجساد العساكر تفترش الرمال.

لم ينتظروا هذه المرة أكثر من خمس دقائق.. ثم خرج لهم من ذلك العنبر وجه كريه.. عرفوا أن اسمه (سعد).. وأنه شاويش.. ولم يكن كبيرًا في السن.

خرج لهم عابس الوجه.. سار بخطوات تمثيلية دون أن يغلق سترته.. وكان يرتدي خفًا في قدميه.

"اجمع يا كلب يا ابن الكلب منك له".

احمر وجه (حامد).. لكنه كتم أنفاسه وتماسك في لحظته الأخيرة.. ردد في نفسه أن الوغد لا يخاطبه هو.. كان بجواره (أسامة).. وكان الشاب قد أوشك على فقدان أعصابه.. فأمسك (حامد) يده في اللحظة الأخيرة ليمنعه من الحماقة.. نظر إليه الشاب حانقًا لكنه أشار إليه ألا يسبب الأذى لنفسه.. توعد (سعد) بداخله لكنه أجل ذلك لوقته.

"اجمع بالخطوة السريعة".

قالها بصوت هادر.. فجرى الجميع نحوه في رهبة واصطفوا كما أمر في ثبات..

"ولا حركة.. ثابت يا عسكري".

انتشى صدره بانصياع الجمع له.. وقف يحدق فيهم بنظرة كريهة.. تكاد تشعر بملمسها المقزز على الوجوه.. راح يتكلم كجنرال قديم.. لم يتحدث عن شيء مما يعنيهم.. فقط تكلم عن العقاب.. عن الردع.. عن السجن والهوان للمقصر.. تحدث عن ميوعتهم ونقص رجولتهم.. نعتهم بالنساء.. وبشرهم بأنهم قد جاءوا الآن لتنصلح أحوال جيناتهم المخنثة وتشم رائحة الرجولة.

شخص مبتذل سخيف.. هكذا فكر (حامد).. لكنه قرر ألا يعر ذلك اهتمامًا.. ظل صامتًا يستمع لتهديدات الرجل المهرج حتى يمل وينتهي.. كلام كثير مزعج لم يكن يتوقع منه خيرًا أو فائدة.

لكنه - (حامد) - كان يشم الخوف من أجساد الرجال من حوله.. أحنقه ذلك.. لكنه - مرة أخرى - لم يكترث ورفض لنفسه أن يهتز ولرجولته أن تنجرف مع ألعاب هذا الرجل الصبيانية.. قرر أن يفكر في أي شيء حتى ينتهي هذا الأحمق من حديثه.. وهذا ما حدث.

في النهاية توقف (سعد) عن الكلام.. الإنهاك يعتصر أجسادهم جميعًا.. ورغبة في النوم تكاد تقطر من عيونهم.. انفرجت أساريرهم وظنوا أن الوقت قد حان ليلقوا الأثقال من فوق جفونهم.. لكن الرجل كان يبغي شيئًا مختلف.. استدار بجسده وكأنه سينصرف.. لكنه دار يواجههم مجددًا.. كشر عن وجه قبيح وصاح فيهم ينهرهم عن التمتمة واللغط...

لم يفهم أحد منهم عما يتحدث وكذلك كان (حامد).. فقط ثلاثة أو أربعة منهم كانوا يعرفون كيف تسير المشاهد...

"امًّا ورِّيتكم يا زبالة.. دا جيش يا غجر مش حمام أم دعبس.. كلوا يقلع".

هال (حامد) ما سمع.. فقط استجاب له عدد قليل في حين بقي الجمع الباقى يحدقون في عدم فهم.

"آخر واحد مش هيقلع هدومه هاعرّفه أنا مين".

أصاب العند (حامد) بكلمات الرجل الأخيرة.. لكن الهمس جعله يفقد بعضًا من ثقته.. كانوا جميعًا يؤكدون أنه جاد.. وأنه لا سبيل إلا الانصياع.. كانوا يقولون إن من سيبقي على كرامته الآن فسوف تدمى كرامته بعد لحظات.. أهم يعرفون كيف يعاقبون من يرفض.

تردد الفتى.. لكن انصياع الجميع من حوله جعله يهتز.. فكر كما قالوا إن امتهان الكل أقل وطأة من امتهان الفرد.. قرر أن ينصاع في حذر مع الجمع حتى يتبين نهاية ما يريد هذا الوغد منهم.. لكنه كان على استعداد لأن يفقد أعصابه في أى وقت.. كان يتماسك بصعوبة.. لكنه لم يجرؤ على التفكير فيما كان سيفعله لو حدث هذا الموقف منذ سنوات قليلة.

هكذا انتظر حتى استجاب الجميع ثم عاود الرجل أوامره.

"ازحف"..

انصاع الجميع مجددًا.. وبدءوا يزحفون بلا هدف.. أشار (سعد) إلى الرديف.. فانصرف وعاد ومعه شخص آخر يحملان برميلًا من المياه.. كانت قذرة بالطبع.. ثم اهالا على أجساد

الزاحفين ليمتزج الماء بالتراب والرمل من حولهم وتحت أجسادهم...

"كمِّل زحف".

راحوا بأجسادهم المنهكة يواصلون الزحف الأحمق إلى ما لا نهاية.. همهمة من هنا تتساءل عن الذنب الذي اقترفوه.. وهمهمة من هناك تخبره بأن هذا هو حفل الاستقبال الذي يذوقه كل المستجدين.. فقط (حامد) لم يكن يفهم.. لكنه كان بلا شك يغلي.. وفي عقله دارت طاحونة الفكر تبحث عن سبيل للانتقام.. الانتقام لكرامته التي تنزف الآن.

"سامع صوت؟.. شكلنا هنتسلى الليلة دي".

ثم نادى على من معه وأمرهم أن يضبطوا المجموعة.. من ثم انهالت الأقدام على ظهورهم وأجنابهم.. وتصاعد صوت الآلام من قلب الجثث الزاحفة ممزوجًا بالضحكات العابثة..

"أنا كنت عارف إنكم مش رجالة".

وأشار مجددًا فانصرف أحد العساكر وعاد ومعه حذاء متسخ كالبركة جاء به من العنابر.. انقبضت القلوب البضة الصغيرة لكنها واصلت الزحف...

الحذاء يلقى على بعد أمتار منهم.. وتعلو الهمهمات من جديد.

"أنا بيادتي دي بسيبها من السنة للسنة لحد ما ييجي شوية نسوان زيكم علشان يلمّعوها".

واصلوا الزحف.. وواصل هو:

"كل واحد يعدي يلحس البيادة دي بلسانه.. واحد واحد قدامي".

توقف الجمع عن الزحف.. دق قلب (حامد) في قوة.. وانتابه ولأول مرة شعور بالتوتر.. لم يستطع أن يهزمه هذه المرة.. تعلقت العيون بفرعون وكأنها تستجدي منه شيئًا.. لكنه صاح فيهم صيحة من يقود جيشًا إلى النصر:

"وقفتوا ليه؟.. اللي مش هيعمل اللي بقوله والله لخليه يقف في وسط الناس يقول أنا ولية مومس وحامل كمان".

لكنه شعر تحت أقدامه ببادرة لتمرد محتمل.. من ثم زاد من ثورته وصراخه:

"نفّذ يا عسكري.. الأمر اللي يصدر ليك من القائد سيف على رقبتك.. لو منفذتهوش تتحبس وتتحول محاكمة عسكرية.. القانون العسكري مبيرحمش".

نظر (حامد) أمامه وهو لا يقوى على التفكير.. ثم قرر ألا يفعلها أبدًا.. هي لحظة تترك فيها لحماقتك أن تقود عقلك

وأنت مرتاح الضمير.. وجد واحدًا فاثنين من الزاحفين أمامه وقد انصاعا للأمر وبدءا التنفيذ، لكن عددًا كبيرًا منهم كان مثله.. رفضوا الرضوخ.. لكنهم لم يجسروا على التصريح.. وتمنَّوا أن تتأخر بهم لحظة المواجهة.

ارتعد (حامد) من هول اللحظات القادمة...

فكر للحظة أن ينصاع كمن فعلوا.. لكنه كره نفسه لمجرد أن فكر في هزيمة كتلك الهزيمة.. قرر أن يواجه مهما كان الثمن.. وصار على يقين بأن الصدام مع هذا المجنون قد صار قريبًا.. ظل يتابع الصورة من بعيد.. ثالث ورابع يستسلمان.. والجنرال يواصل السب والاستعجال...

ومن أمامه فجأة ظهر (أسامة).. نهض بجسده المترهل المتسخ فجأة.. وانقض على (سعد) وراح يسبه بأقذع ما يعرف من ألفاظ.. لم يصدق أحد.. جن جنون الأسد الجريح بعد أن باغته الشاب ووجه له ضربة حطمت كبرياءه المزعوم.. انهال الضرب عليه من عساكر الجنرال حتى سقط أرضًا.. وأكمل (سعد) عليه كي يرسمه صراع رجل لرجل.. راح يضربه وقد أصابته نوبة من الجنون:

"اتجننت يا ابن الفاجرة؟.. أنا هحوللك محكمة عسكرية.. أنا هدمر مستقبلك.. أنا هخليك متخرجش من الجيش.. وهموِّت أهلك من الحسرة عليك يا كلب يا ابن الكلاب"...

كان (أسامة) قد فقد وعيه تقريبًا من الإعياء والضرب.. وكان (سعد) على رأسه:

"هات العشا يا (حافظ)"..

يصيح في هياج.. فيجري (حافظ) ويعود حاملًا بيضتين في كف يده ثم يلقيهما على الأرض..

لم يكن (أسامة) يشعر بكثير مما يحدث من حوله.. لكنه سمع (سعد) يأمره بالرقود عليهما.. لم يستجب.. أو ربما لم يشعر.. أمسك (سعد) ثوبه الداخلى وتوعده.. حلف بأن يتركه عاريًا كما ولدته أمه إن لم يفعلها.. شعر (حامد) في هذه اللحظة أن عليه أن يثور.. أن يثأر لهذا الرجل الذى قال لا.. غلت نفسه بالغل وتحركت رجولته من جديد لنصرة زميله.. وجد نفسه ينهض من أجله ومعه آخرون.. لكنهم كانوا قلة للأسف.. واكتفت بعض الصفعات والركلات بإنهاء الأمر قبل أن يبدأ.

"محدش يتحرك يا كلب منك له.. لو حد اتنفس هعتبر ده تمرد وعصيان للأوامر.. إنتوا مش عارفين يعني إيه تمرد.. قلتلكم القانون العسكري مبيرحمش".

مرة أخرى لم يكن هناك مكان لرجولة الفتى.. رجولة الرجل لرجل..كاد يقوم لنجدته ثانية.. لكنه رأى تخاذلًا فجًّا في أعين من حوله.. رأى الخوف وعرف ألا سبيل لنجدة زميله

بمفرده.. تعلّم كذلك درسًا جديدًا.. هو أن مصير من يرفض التنازل عن الكرامة هو تنازل أكثر وأكثر...

واصل (سعد) تهديده.. ولم يجد (أسامة) غير الانصياع تحت تهديد الصفعات والضربات المنهالة عليه.. وجد نفسه يرقد وهو شبه فاقد الوعي.. لكن الرجل لم يكتفِ.. قال له:

"قول أنا مش راجل.. أنا فرخة وبيض.. أنا مش راجل أنا فارخة وبيض".

تمتم (أسامة) بكلمات لم يسمعها أحد.. ثم انهارت دفاعات الفتى ليبكي كرامته المهدرة دفعة واحدة أمام وجه (حامد) العاجز الوحيد.

***

مع نهاية المسرحية تسرب الجميع إلى العنابر.. افترشوا الأرض.. ولم يتفوهوا بكلمة واحدة.. ماتت الرغبة في الكلام.. لا أحد يريد أن يتذكر اليوم ولا أحد يريد أن يفكر في الغد.. فقط استسلمت أجسادهم المنهكة للنوم في أي مكان كان.. كان (حامد) بينهم.. وكان يكتم مشاعره ويرتجف.. لم يعرف بما يفكر حتى غالبه النوم.

هكذا مرت الأيام.. يوم.. اثنان.. وثلاثة...

وفي مساء اليوم الرابع أمرهم (سعد) أن يجمعوا فقعلوا.. لاحظ (حامد) أن (سعد) يرتدي ثوبه العسكرى كاملًا، وأدرك أن هناك شيئًا ما يختلف.. بعد ساعة من الانتظار لاحت لهم سيارة عسكرية صغيرة..ثم أخرى خلفها عند أول الطريق.. اجتازت الأولى البوابة وتوقفت بالقرب منهم..لم يكن الكثيرون من أبناء الجهل والمرض يعرفون شيئًا عن النجمة والنسر على الكتف.. لكنهم كانوا يعرفون جيدًا أن النسر في حد ذاته رتبة كبيرة.. لذا اصطف الجميع في رهبة حين نزل حاملها من السيارة.. وازدادت رهبتهم حين حيا (سعد) هذا الضابط وهو يرتجف.

"ازيكم يا رجالة؟"

"تمام يا فندم".

"حد فيكم كان بيشتغل في قهوة.. كافتيريا.. نادي.. أو مطعم؟"

لم يجب أحد.. لم يفهموا سر سؤاله الغريب.. فآثر الجميع الصمت حذرًا.. لكنه حين كرر سؤاله ثانية بانفعال تقدم له ثلاثة من الصفوف الأولى.. أشار لهم أن يحضروا مخالهم وأن يعودوا في لحظة.

كرر سؤاله ثانية لكن أحدًا لم يجب.. هنا بدأ الضابط الكبير يسير بنفسه بين العساكر.. كان قلب (حامد) يرن

كالجرس كلما اقتربت أقدام الرجل منه.. سمعه يُخرج واحدًا بالقرب منه ويأمره بالمثل.. لكنه لم يكن يجسر على أن ينظر ليرى ما يحدث.. توقفت الأقدام بجواره فانتفض.. شعر بيد الضابط تقلب فيه يمينًا ويسارًا كالدمية...

"شكلك كويس ونضيف.. روح هات مختلك ياله".

"بس...".

"العسكرية مفيهاش بس يا بابا.. روح بدل ما ابيّتك في السجن".

استجاب (حامد) متخاذلًا وغادر الصف.

"بالخطوة السريعة يا عسكري".

فأسرع.. لم يكن يعرف مصيره.. لكنه كان يتوقع الأسوأ دائمًا.

عاد بمخلته.. كانوا قد بلغوا خمسة.. حملتهم السيارتان إلى حيث لا يعرفون.. لكنهم حين بلغوا نهاية الطريق صاروا يفهمون تقريبًا ما صاروا إليه.. كانت السيارة تقلهم إلى مكتب القائد.. سيادة اللواء.. ليتسلموا بوفيه مكتبه من زملائهم الذين انتهت خدمتهم.

لم يتكلم (حامد).. فقط تذكر والده الطيب وابتسم.. ابتسم في مرارة وقرر ألا تأخذه الرهبة مرة أخرى.. قرر أن

ينفض خوفه ويقبل واقعه وكأنه قد حارب ووقع أسيرًا.. أو أي شيء آخر.. لن يفكر أو يتألم من جديد.

حين بلغوا مكان مبيتهم أشار الضابط إلى اثنين منهم.. أمرهم بالذهاب إلى مساكن الضباط لتنظيف مقر سكن القائد صباح الغد فانصاعوا للأمر.. انصرف الضابط وتركهم.. فتنهد الجميع يفرغون حريق صدورهم في الهواء.. كان أغرب ما سمع (حامد) أن قال أحدهم:

"ياله.. خدمة اللواء أحسن ميت مرة من خدمة الكلب اللي اسمه (سعد)".

كان الرجال على استعداد لجدال طويل لكن (حامد) كان يريد أن ينام.. كان يريد أن يغيب عن وعيه وعن دنياه.. الآن وللأبد.

***

كان الصول (إبراهيم) رجلًا طيب القلب.. لم يكن لديه أولاد؛ لذا كان يعاملهم جميعًا كأطفال يخشى عليهم معترك الحياة.. كان دائمًا ما ينصحهم.. ينصحهم بأي شيء.. في وجهه أبوة غير مألوفة.. وفي عينيه العجوزتين سنين من ألم.. وأحمال ليس لها صاحب يرفعها من فوق ظهره.. كان يتكلم كثيرًا.. ربما ليحكي خبرة يراها مهمة.. أو ربما ليحرق طرفي

وقت لا يريد أن يمر.. وكان الجميع على استعداد لأن يسمع.. ربما ليفهم.. وربما لأن الرجل الصالح في هذا المكان يستحق مجاملة تسعده.. واعتبره (حامد) شيئًا طيبًا أن قابل هذا الرجل.

أخيرًا وجد (حامد) نفسه في البوفيه.

لم يكن (حامد) يجيد أعمال القهوة والشاي كأقرانه، وكان أكثرهم قبولًا في هيئته وملامحه؛ لذا كان كثيرًا ما يلعب دور كبش الفداء ويقوم بإدخال الطلبات إلى مكتب القائد ليتلقى ما فيه نصيبه.

كان لحظات عصيبة.. عرف (حامد) ساعتها أن النسر والنجمة ليست هي أعلى شيء في الجيش.. هناك ما هو أعلى بكثير وهو موجود بكثرة.

كانت تصيبه شظايا السب كلما دخل، وكان الكلام القاسي يدمي كرامته.. لم يتخيل يومًا أن يوجَّه إليه مثل هذا الكلام الجارح فلا يملك لنفسه شيئًا.. كان يكتم ما في قلبه وينشب مخالب عقله في ملامحه كي لا تتبدل مع كل كلمة وسبة.. فقط يعتذر.. وينصرف.

قال لهم الصول (إبراهيم) مرة:

"الجيش مفيهوش كرامة.. كرامتك دي تقلعها مع الملكي.. إنت هنا عبد تسمع كلام سيدك.. وتحمد ربنا إنك بتنام في فرشتك وخلاص".

في آخر مرة أصابت السبة أمه فارتجف.. انقلب قدح القهوة على الطبق.. وكان فارغًا لحسن حظه.. كاد أن يقول شيئًا.. احمر وجهه.. لكنه تماسك في اللحظة الأخيرة.. وخرج في لمح البصر.

ليلتها دمعت عيناه لأول مرة.. بكى عاره وخيبة أمله.. لكنه لم يترك أحدًا يراه.. انفرد بذاته وتركها للحظات على فطرتها.. ثم تمالك ثوب نفسه سريعًا وعاد حيث كان.. مع شعور بالحنق يعتريه كونه لم يكن فارس أعصابه هذه المرة.

وحين نزل إجازته الثانية شعر بالألم أكثر وأكثر.. استقبله أهله استقبال الأبطال كعادتهم وكأنه عاد من الحرب.. كانوا شديدي الفخر به.. وكانوا يتباهون بواجبه أمام القرية كاملة.. كان كلما أراد أن يستفسر عن حالهم وحال إخوته لا يتركونه ليستطرد.. يحدثه أبوه بأنهم جميعًا فداء وجوده بين رجال الوطن.. فكان يصمت ولا يتكلم..

كان مشهد أهله الذين سُبوا من طوب الأرض أمامه يضرب أنيابه بين ثنايا قلبه المكدود أكثر وأكثر.. وكانت أسئلة أبيه عن الاستعداد للعدو وقوة الجيش وعزيمة الرجال تثير في نفسه سخرية خفية.. لكنه لم يكن يجرؤ بحال على أن يعذب والده ويحدثه عن شيء من واقعه.. فقط يقول أي شيء.. ويرد بما يتيسر له من الكلام.

في الظهيرة ترك جسده المجروح يرتمي عند شاطئ ترعته.. تركه عقله المكدود يشرد.. تبعثرت قطرات ذكرياته في كل مكان كدوائر الماء.. ذاب في حالة هي للنوم أقرب منها إلى اليقظة.. شعر بأنه لم يعد قادرًا على تحمُّل جينات رجولته، وأنه لم يعد يريد أن يغادر داره قط.

لكنه حين عاد إلى معسكره تيقَّن أن حياته حتمًا ستتغير.. كل شيء فيها سيتغير...

كان يومه الأول بعد الإجازة.. وكعادته كان كبش الفداء.. لكنه في هذه المرة عرف أنه سيكون ما هو أكثر.

"إيه ده؟"

يقول القائد ثائرًا.. ويحدِّق في (حامد) الذي صمت غير فاهم.. وجد الرجل الذي كان متعكرًا من الأساس يقف من جلسته.. يمسك فنجان القهوة ويلقيه في وجه (حامد) الذي تراجع مذهولًا..

"جايبلي القهوة باردة يا ابن المِكَسَّحة؟!!"

لم يكن (حامد) يعرف شيئًا عن القهوة غير أنه قام بتقديمها.. فلم يعرف كيف يجيب.. شل أعصابه أن تفجَّر الموقف في وجهه هكذا.. لكن الرجل كان مصرًّا على المزيد.

"ما إنت أصلك لو اتعلمت حاجة غير إنك تمشي ورا أمك الرقاصة بطبلة وتلم النقطة مطرح أبوك الأهطل كان زمانك بقيت راجل".

ارتجفت أصابع الشاب الصغير.. وأفلت محتوياتها فهوت على الأرض.. اشتعلت الشياطين في وجه القائد فقفز يمسكه من سترته ويصرخ في وجهه:

"إنت اتجننت يا ابن المرأة المومس.. يا ابن الحرام"..

انتفض (حامد).. وشعر بشيء من ماضيه البعيد يعود إليه.. يسري في عروقه الفتية.. شعر بالحمل الثقيل يعُجزه هذه المرة.. شعر برغبة مجنونة في أن يزيح أطنان الذل والهم عن جلده النقي الحر.. وجد نفسه يستجيب لصرخة من كيانه ولا يمنعها هذه المرة.

"أنا راجل غصب عنك".

ثم دفع قائده بعيدًا عنه في شراسة فأسقطه...

هنا عرف (حامد) أنه لا سبيل للتراجع.. أفاق قائده من صدمة ما فعل به عسكري مكتبه.. وإذا به ينقض عليه ويهوي على وجهه بصفعة تردد صداها داخل روحه الجريحة المنهكة.

(أبو الوليد)...

وجد (حامد) نفسه في وضع لا فكاك منه.. قرر أن يمسح عار سنينه.. وأن يعيد نفسه لنفسه.. رفع يده وقرر أن يرد لنفسه ما فقد.. مرت عليه اللحظات كأنها سنين.. فقط شعر بعساكر المكتب يندفعون من خلفه ويكبّلون ذراعيه.. وقدم القائد تركله في كل مكان.. كان آخر ما سمعه هو صوت القائد يقسم له بنهايته.. بمحاكمة عسكرية وسجن حربي.. بأشياء كثيرة.. لكنه لم يكترث.. وجد اللون الأحمر يحيطه من كل اتجاه.. والأيدي الثقيلة تعبث به وتهتك ما بقي له من كرامته ورجولته المهشمة.

"ضيّعت مستقبلك يا مجنون"..

لكنه كان يقاوم.. كان يريد أن يضربه.. كان يريد أن يعود إلى أرض رجولته.. وأن يحقق لنفسه ولو ردًّا صغيرًا.. تمرَّد على جلده الذي لم يلبسه بإرادة منه.. لكنه قد فات أوان ذلك.

قال لهم الصول (إبراهيم) مرة:

"مهما تسمع اتحمّل.. تخيل إنه مَبِيْكَلِّمَكْش.. لأنك لو فكرت لحظة إنه بيكلمك هتتجنن.. وهتيجي على دماغك في الآخر".

وجد نفسه يُمضي ليلته بغرفة الحبس...

الظلام الدامس.. الأجساد الملتصقة.. ورائحة الفضلات المتعفنة لا تبقي على أنف تشم.. الرطوبة تزحف على الجدران كالثعابين.. عرف (حامد) أنه في انتظار محاكمة عسكرية.. ورغم أنه لم يكن يعرف شيئًا عنها.. لكنه كان يعرف أنها تستحق أن يكون خائفًا.

شعور بالفزع.. ثم شعور بالراحة.. هو هنا لأنه رجل.. لأنه لم يتنازل أكثر.. افترش الأرض وترك نفسه لتأخذ من الدنيا حقها.. وغاب في نوم عميق.

في الصباح عرف أن الهواء هنا قليل.. وأن الجميع هنا يعانون مرضًا جلديًّا معينًا.. عرف كذلك أنه هنا مع أحط الناس وأرفعهم.. عرف مهندسًا ومحاسبًا ومعلمًا.. كما عرف عددًا من تجار المخدرات.. اختلفت أسبابهم للسجن.. لكن قليلًا منهم كانوا ممن فعل مثل حماقته.

استكان لوضعه الحالي ولم يفكر كثيرًا.. فقط تذكَّر كلام والده وضحك.. ضحك كثيرًا حتى دمعت عيناه.. واعتقد البعض أن لوثة ما قد أصابته فتجنبوه.

يومان كاملان وهو في قبره.. يشم رائحة جسده الذي تعفن حيًّا.. حاول بعض السجناء الحديث معه لكنه لم يكن يرغب في مزيد من الغرق في الفكر.. كان ينام معظم الوقت

حتى بدا كالمدمنين.. يقص من أيامه.. ويتحاشى النظر لما هو مقبل عليه.

في هذه الليلة مال عليه (حسين) - وكان مهندسًا - وقال له قبل أن ينام:

"يا ريتني كنت عملت زيَّك من زمان.. بدل كده كده كلنا هنا".

ثم ربت على كتفه وانصرف..

لم يدر (حامد) لماذا لم ينم هذه الليلة.. وجد نفسه يسترجع حديث أبيه في تلك الليلة ويشفق عليه.. تذكَّر كيف قابله في إجازته الأخيرة كالبطل.. تذكر أيامه القليلة التي قضاها هنا.. تذكَّر ما سمعه من قصص داخل جدران غرف الحبس.. تذكَّر (سيد) تاجر المخدرات الذي ما زال يزاول نشاطه داخل المعسكر ولا يعرف كيف.. تذكر من يسب.. وتذكر من لا يزال يملك ما يدافع به عن جيشه.. حتى في هذا المكان.. عن المهمة والرسالة.. تذكرهم حتى بدأ النوم يتسلل إلى عينيه...

لكنه لم ينم أبدًا.

شعر بالصباح يأتي عليهم رويدًا رويدًا.. وبدأت الحركة تدب في المكان.. قاربت الساعة على الثامنة.. من ثم شعر الجميع بضجة غير عادية.

فجأة توقفت سيارة عسكرية تتبعها أخرى أمام غرف الحبس وهبط ضابط من الأولى..صراخ عصبي.. فجأة انفتحت

أبواب الغرف أمام العيون الذاهلة..وصاح فيهم الضابط كالمجنون:

"اخرجوا كلكم.. كل واحد يمسك سلاح.. بسرعة"..

ارتجف (حامد) غير فاهم.. لكنه عرف أنه أمر جلل.. انتفض مع من انتفضوا.. وجرى يتناول سلاحًا من السيارة الأخرى.. جاءهم ناقلة جديدة.. وتعالى صياح الضابط ليزيد الجو توترًا:

"اطلعوا على العربية.. بسرعة".

نفّذوا الأوامر مرتجفين.. لم يجرؤ أحد على الاستفهام.. كان الصراخ والدبيب في كل مكان يضفي على الجو رهبة قاسية.

قال (سيد) تاجر المخدرات مستنكرًا:

"هنروح بلبس السجن ده؟.. دول مجانين ولا إيه؟"

سمعه الضابط لكنه لم يعقّب.. هنا بدأ همس العساكر يصل إلى مسامعنا.

هتف (حسين) مذهولًا:

"مصر بتحارب.. إحنا رايحين على الجبهة".

"بتحارب ازاي يعني؟.. ما احنا هنا بقالنا شهور ولا حسّينا بحاجة".

بدأت الناقلة تتحرك.. وبدأت الأصوات تتعالى من قلوبهم لتذيب ما غطاها من كراهية.. بدا البعض متحمسًا يهتف للحرب.. في حين بقي البعض صامتين.. لا زالت قلوبهم لا تقدر أن تحب.

كان (حامد) واحدًا منهم.

لم يكن (حامد) يعرف أن له وطنًا.. لم يعرف غير أنه اضطر للاغتراب كي ينفق على والده المريض وأسرته.. وطنه الذي يعرف.. ثم فجأة عرف أن له وطنًا أخر.. وطنًا جاء يطالبه بواجبه.. كذلك قال والده وكذلك آمن وصدق.. لكنه وبعد أيام قصار شعر وكأنه إبرة بوصلة في قلب مغناطيس لا تعرف لرأسها ولا لذيلها دليلًا أو وجهة.

لكنه على الأقل عرف أنه على طريق ما تمناه أبوه له.. وقرر أن يفرحه لمرة قد تكون هي الأخيرة.. شد على سلاحه وهو يستمع إلى ما يقولون.. بالتدريج بدأ يتحمس معهم وانغمس المجموع في حالة من الثورة والاندفاع.. والمسافة تموت بينهم وبين خط النار تدريجيًا.

توقف ناقلتهم مع بقية الناقلات.. يهبط الجنود في منطقة لتمركز الجيش وقلوبهم ترتجف.. ترتجف من هول الحرب وتنتشي بشرف القتال.. كانت الشمس فوق رؤوسهم في هذه اللحظة.

ثم عرفوا أن عليهم أن يتمركزوا حتى تصدر الأوامر...

لم يفهم أحدهم ما معنى ذلك.. لكنهم انصاعوا من جديد.. ارتجفت قلوبهم لصوت التفجيرات القادمة من بعيد.. وبدأوا يختبئون في الخنادق.

"إحنا جايين نستخبى ولا إيه؟"

قالها (حامد) غير فاهم.. فرد (حسين) الجالس بجواره هامسًا:

"إنت عبيط ولا إيه يا بلديتنا؟.. الضرب هنا.. مش هناك.. مش في (تل أبيب)".

"(تل أبيب)؟"

رد عليه (حسين) وهو يمسك بسلاحه متشنجًا:

"يعني احنا جايين هنا ندافع مش نهاجم؟"

ورأى (حامد) غمامة من الدمع في عينيه ففهم أكثر...

لم يكن (حسين) هو الوحيد الذى فهم ذلك.. أُخْرِسَت الألسنة ولم يعد أحد يتكلم.. كانوا ينتظرون أمرًا بالهجوم.. كانوا ينتظرون أي شيء يعفيهم من استنتاجاتهم المخيفة.

لكن صوت التفجيرات كان يقترب أكثر فأكثر ليؤكد صدق أفكارهم.. بقي فقط خيط من الأمل يربطهم بالحياة.. خيط اسمه الكر والفر.. شيء اسمه فنون الحرب.

لكن اليوم مضى بلا أحداث.. وبلا معالم.

***

في الصباح بدا القادة أكثر عبوسًا وعصبية.. كانوا يحاولون معرفة موقفهم بالضبط.. لكن الإجابات كما يبدو لم تكن مرضية.. فقط بقي العساكر في أماكنهم وزادت الهمهمات المتشائمة أكثر فأكثر.

وزاد إحساس (حامد) بالحنق.. لقد دخل الجيش ليحارب فإذا بهم يتحدثون بهمهمات الهزيمة قبل أن يفعل أي شيء.. قرر أن يتماسك للمرة الأخيرة.. وأن يستعد للحظة يثبت فيها أنه الرجل.. كان يشعر بأنه مشهده الأخير.. ويتمناه مشهده الذي أراد.

مر النهار بطيئًا قاسيًا.. كلمات وهمهمات موحشة.. لكن غروب الشمس حمل لهم باقة من لحظات الموت.. موجة من النار أطاحت بأكثر ما يملكون.. الأجساد تندفع داخل الخنادق.. وصفير الطائرات من فوق رؤوسهم يمتزج بدوي الانفجارات.

"الخنادق.. كلوا يجرى على الخنادق".

الصراخ العصبي يمتزج بصوت التفجيرات.. الطائرات تدوي من فوقهم فتخلق خلفية صوتية مرعبة لمقطوعة الموت السوداء..

لحظات قليلة مرت كسنين.. ثم فجأة ساد السكون بأكثر مما كان.

دقائق قليلة ثم انتهى كل شيء.

"الطايرات دي مش جايَّالنا.. دي رايحة تهاجم نقطة تانية.. دول بس شفونا فحبوا يقوموا بالواجب".

كان وقع كلمات (حسين) مدمِّرًا.. القادة يجرون في كل مكان كالمجانين ويسبون الجميع.. راحوا يحسبون الخسائر حتى غربت الشمس.. وحين صدر - فجأة - أمر بالانسحاب...

تعالت الصيحات المستهجنة تعلن حالة من الذهول والغضب.. انسحاب؟!.. نحن لم نفعل شيئًا كي ننسحب.. هل هُزِمنا؟.. كيف؟؟ ومتى؟؟.. بدأت تعلو أصوات الجنود بنبرة لم تخرج من حناجرهم أبدًا منذ صاروا كذلك.. كان الموقف كقنبلة تنتظر أن تنفجر ليفتك الكل بالكل.. لكن القادة كانوا أكثر منهم ثورة واندفاعًا.

"نفِّذوا الأوامر..خلاص الحرب خلصت.. كل اللي هَيِسْتَنَّى هيموت.. لو مش بإيديهم يبقى أنا اللي هادفنه هنا"..

"يا افندم.. هننسحب ازاي وكل العربيات اضربت؟.. ثم احنا هننسحب لفين؟.. مين اللي هايقابلنا؟.. هنمشي منين وازاي؟"

"كله ينسحب.. على رجليه.. معنديش كلام تاني أقوله.. أنا زيّي زيكم.. كلوا يجري".

اهتز كيان (حامد) والكلمات القاسية تسيل من أذنيه إلى قلبه فتحرقه.. رأى من حوله وقد أصابتهم حالة من الجنون.. صراخ ودموع.. وجد عينيه وقد ابتلتا بالدموع مثلهم.. دموع من ضحَّى بكل شيء من أجل لا شيء.. تذكَّر كلام أبيه.. وحال أهله.. تخيل نظراته لو عاد إليه ابنه هكذا.. تذكر مهانته.. عرف أن كل هذا كان بلا ثمن.. شعر بالضياع.. بانهيار كيان الرجولة التي طالما راهن عليه.. خسره بإرادته وخسره إلى الأبد. سار كالتائه بخطوات شاحبة.. شعر بيد (حسين) الدامعة تمسكه قبل أن يتحرك.. أشار له بوجهه الذى أغرقته الدموع ففهم.. كانت جثثًا كثيرة من زملائهم وكان يعرف البعض.. جثة (أسامة).. رآها فانتفض.. انقبض قلبه.. واعتصر الحزن روحه الضعيفة أكثر فأكثر.. انحنى معهم وقد صارت دموعه جزءًا من أنشودة العزاء الهادرة.. راح يحفر كيفما اتفق.. رأى دموع الرجال والأيدي تحفر وتحفر.. كان القادة قد تقدموا الانسحاب واختفوا عن الأنظار.. لكن الجنود بقوا لإكمال عملهم المؤلم إلى النهاية....

ألقى (حامد) نظرة أخيرة على (أسامة).. تذكر...

"قول أنا مش راحل.. أنا فرخة وبيض.. أنا مش راحل.. أنا فرخة وبيض"...

سالت دموعه أكثر.. وانطلقت صرخته الجريحة تشق سكون الليل.

"يا كلاااااااااااااب".....

***

قال لهم الصول (إبراهيم) مرة:

"بردو يا رجالة اعذروا القادة.. أنتم عساكر.. والعساكر مهما تعبت والهانت بتنام مرتاحة البال.. لكن هم مهما كان شايلين مسئولية كبيرة.. كبيرة قوي".

***

حين استدعى الجيش (حامد) مرة أخرى لم يعثروا عليه في قريته.. لم يكن والده يعرف عنه شيئًا.. اعتبروه في السجلات الرسمية في عداد المفقدين.. في حين احتسبه أهله عند الله شهيدًا.. كان يتمناه أبوه بطلًا منتصرًا لكن هذا ما كان.. تحسَّر أبوه عليه كثيرًا.. وتذكَّر الفتى اليانع ورجولته التي نمت أمام عينيه يومًا بعد يوم.. تذكر كلماته التي سبقت عمره.. تذكر طاعته وإخلاصه وبكى.. بكى كما لم يبكِ من قبل.

حين استدلوا على (حسين) زميله أخبرهم بأنه أصر على الانسحاب بمفرده.. لم يشأ أن يتكلم عن جثة القائد التي عثر عليها أثناء انسحابه وقد اخترقها الرصاص.. كان منكبًا على وجهه وسط الرمال التي كادت تغطي جسده بأكمله.. وقد تعرَّفه (حسين) لكنه لم يجد جدوى من الحديث عن ذلك.

بكاه أهله كثيرًا.. وأقيم له صوان بعد أن مر عامًا دون أن يستدل عليه أحد.

مات ما يقرب من أحد عشر ألف جندي منهم.. فلم لا يكون هو واحدًا من هؤلاء.. من يعرف (حامد)؟.. من يعرف (مصطفى) عامل المطبعة.. أو (علي) بائع الفول.. أو (جرجس) الميكانيكي.. كلهم ماتوا على كل حال.

لكن ما سمعه أبوه قبل أن يموت لم يسره كثيرًا.. قال له رجل إنه قد شاهده حارسًا لأحد الملاهي الليلية عندما كان في القاهرة.. أكَّد له شخص آخر هذه المعلومة.. وأنه قد شاهده أكثر من مرة هناك.. قال له ثالث إنه لا يعرف عنه شيئًا.. لكنه سمع من بعض أبناء القرية الذين يعملون في القاهرة أنه صار عبدًا للحرام.. وأنه يدير بيتًا للدعارة في أحد الأحياء الشعبية.

مات أبوه و لم يعرف.. كتم ذلك في قلبه و لم يخبر أحدًا من أهله عنه حتى ثقل عليه حمله ومات به.

وكذلك لحق به (حامد).. ربما ببضعة شهور أو سنين.. لا أحد يعرف بالضبط.. مات في مكان ما.. لكن أحدًا من الناس لم يكن يعرفه.. لا يعلمون من أين جاء.. ولا يعرفون أحدًا من أهله.. مات في النهاية.. لكنه على الأقل وجد من يدفنه.. وقلة تقرأ علي روحه الفاتحة.

مات ليس كما أراد.. لكنه حتمًا...

أراد أن يموت.....

***



نقطة ارتكاز



أنا وافد جديد إلى القاهرة..

هذا الشئ لا يحتاج إلى ثوب عجيب أو لكنة مميـــزة كـــي تلاحظه.. ولا الحقيبة التي في يدي حتى.. هو شــــيء تــــراه في عينيَّ الهشَّتين اللتين تعبثان في كل اتجاه.. تراه مــــن خطـــواتي الهادئة الهزيلة التي لا تضاهى بتلك التي يخطوها أبناء الزحـــام.. تراه في ملامح وجهي المغرقة في بحر التيه.. لم أكن كثير الزيارة للقاهرة.. مرة أو مــــرتين لا أكثـــر.. لكـــن هـــذه الأولى لي بمفردي.. كنت - بائسًا - أقف أمام محطة رمسيس المزدحمة.. والهواء الممتزج بغبار الطرقات يتسلل بين طيات روحي ويدمع عيناي في قسوة.. وفي عقلي فكرة واحدة.. أن أنهـــي مهمـــتي العاجلة وأعود من حيث أتيت.

"شارع كلوت بيك".

هو مشوار صغير لشارع أخبرني عمي أنه قريب من محطـــة القطار.. وهو شيء نادر ها هنـــا في العاصـــمة أن تـــصل إلى هدفك سيرًا على الأقدام.. فقط علي أن أسأل.. حملت حقيبتي

ووضعت الصحيفة في جيبها.. ثم سرت في تـــأنٍّ إلى جانـــب الطريق.. التهبت أعصابي وعيناي تتبعان العاصفة الثائرة مـــن حولي في جنون.. شعور بالدوار كلما تخيلت ما أنـــا مقبـــل عليه.. الطريق الصارخ والزحام يعصر الناس كيفما اتفق...

لا أدري كم استلزم الأمر كي أجد نفسي بكامل نفـــسي على الجانب الآخر.. لكن ذلك حدث في النهاية.

على الطرف الآخر من الطريق يقف رجل عجيب الهيئـــة.. كان يبدو كمن ينتظر شيئًا.. في الخمسين من عمره.. وقد بدا عليه الأرق والتعب.. إنه ذلك التعب الذي لا تنجبه اللحظـــة لكن ذلك الذي ينجبه عمر بأكمله..

- لو سمحت..

- نعم.

يرد الرجل في انزعاج وكأنما استيقظ من حلـــم موجـــع.. ينظر لي كأنما أدرك ولأول مرة أنه يقف في منتصف الرصيف..

- لو سمحت.. شارع كلوت بك..

- نعم؟

- شارع كلوت بك.. أروحه ازاي؟

- كلوت بك؟

صمت للحظة وقد بدا وكأنه يعاني مشقة المساعدة.. هـو مهموم لا يقوى على الحوار والشرح.. لكنه كان على كـل حال لا يقوى على زجري.. فقط عيناه فعلتا...

- شارع كلوت بك؟

***

"صفوت"...

لا أقوى على الحراك.. عيناي - العجوزتان بعمر الخمسين - لا ترتفعان عن مستوى سطح مكتبي المكـدّس.. اخطـف نظري هنا وهناك.. وكأني أتأكد أن أحدًا مـن زملائـي في المكتب لم يلاحظ..

من الكذب أن أقول إنها أول مرة.. لكنها الأولى التي تتخذ فيها مثل هذا الشكل السافر.. الظرف المكتنز يوضـع في درج مكتبي.. ويد الشاب الأنيق تتركه وتنسحب في سرعة.. ويقف أمامي في ثقة.. لكنني لا أستطيع أن أرفع وجهي في وجهه..

نعم ليست المرة الأولى.. كثيرًا ما كان القـادمين لمكـتبي يعانون من تعقيدات الروتين - هل كنت أنا أتكفل بمزيد مـن التعقيد؟.. لا أدري صراحة - كان ذلك يدفعهم في قهر لدفع مبلغ يسهّل عليهم الصعب.. كانت مبالغ بسيطة.. وكانت في

مقابل إنهاء أوراق قانونية تمامًا.. هي فقط تحفّز علـــى ســـرعة الانتهاء من هذه الإجراءات الروتينية المعقدة...

"صفوت"

لم أكن أراها رشوة.. كما قلت سلفًا كانـــت أوراقهـــم قانونية تمامًا.. أنا لا أصنع القوانين.. لكنهم لا يفهمون ذلك.. لذا يدفعونها لي ممزوجة بالكراهية.. غارقة في الغـــل.. أذكـــر بالخير الأستاذ "مصطفى".. والذي جاور مكتبي هذا لفترة قبل انتقاله.. كان وَرِعًا، وقد قال في مجمل كلامه مـــرة أن هـــذا حرام.. لكنني كنت دائمًا أقول: لا.. قد يكون حرامًا.. لكـــن الله يعرف الظروف.. ضيق المعيشة.. والظروف الـــصعبة.. الله يعلم.. وسيغفر لي.. كيف لي أن أساعد هؤلاء المواطنين علـــى أي حال.. وأنا أعمل في أسوأ الظروف.. حتى لـــو صـــادفهم بعض من تضييق متعمد.. فذلك خارج عن احتمالي.. كيـــف أساعدهم وأنا فيما أنا فيه.. بعض المبالغ قـــد تخفّـــف عـــني وعنهم.. فما المشكلة؟

"صفوت"..

والآن جاءت اللحظة الأصعب.. ورق غير قانوني.. ليتـــه يمنح كسبًا غير مشروع.. لكنه للأســـف يلقـــي بـــالبعض في التهلكة من دون ذنب أيضًا.. هو أمامي.. وكـــذلك المبلـــغ..

الحق أنه جاء في وقت هو الأكثر صعوبة بالنسبة لي.. لقد تراكمت الأقساط عليّ وتوشك على تدميري.. وأنا الآن في أسوأ حال.

"صفوت"..

يا رب.. أنت تعلم أني مضطر.. هذه حقيقة.. أنا لا أريد الأموال من أجل سيارة فارهة أو فيلا أو رحلة صيف كالآخرين.. أنا لا أحتاجها كي أرمي بنفسي في بحر من الترف.. الآخرون يفعلون.. أما أنا فكل ما أحتاجه هو ظرف واحد من هذه فقط لأخرج من مأزق جد يهددني..

"صفوت"..

هذا هو الواقع.. والله يعلم.. الله يعلم بمعاناتي.. الله يعلم أن الأزمة تعصرني كفكّي تمساح...

"صفوت"..

أنت تعلم يا رب.. تعلم بما أنا فيه...

"يا صفوت"..

"نعععععععععععععم"....

رددت في غضب وقد صار النداء المتكرر كأزيز بعوضة التصقت بطبلة أذني.. كان زميلي في العمل يطل بجسده من الباب:

"المدير عايزك"..

ملأت صدري بهواء المكتب الخانق ونهضت.. بدت لي كفرصة عابرة لتأجيل اللحظة الكريهة.. لكن نظرة من عيني الشاب الأنيق أخبرتني.. "الآن".. تحرَّكَ في خفة حتى يغلق عليَّ الطريق دون أن يلاحظ تحركه أحد.. التقت عيناي بعينيه.. اهتزت أقدامي وقد أدركت أن لا محالة...

جلست مع حركته المفاجئة.. ووجدت نفسي أنظر إلى مكتبي في وهن.. اهتزَّت قدماي بصوت مسموع.. مال علي.. أنت عالم يا رب.. وستغفر لي.. دفع ورقته تجاهي.. نظرت إليه للمرة الأخيرة.. ستغفر لي يا رب...

تناولت قلمي.. أمسكت الورق..

ابتلعت ريقي..

"ستغفر لي"

***

أجاب بعد برهة:

- بُص عَدِّي الشارع ده.. وبعد كده ده.. لحد السور.. واسأل..

قالها مشكورًا ولم يُكمل.. تركني واندفع مسرعًا فور رؤيته لحافلة من تلك التي ينجذب لها الناس كفتاة جميلة.. بيد أنه لا

توجد فتاة مهما بلغ حسنها يمكن لهذا الحشد مـــن النـــاس أن يتدافعوا عليها معرِّضين حياقم للهلاك.. كان موظّفًــا علـــى الأرجح.. اتَّبعتُ نصيحته وعبرت الشارع في رحلة تيه جديد.. مشيت لمسافة كما نصحني.. حتى وقعت عيناي على مقهى من المقاهي فاتَّجهتُ إليه.. كان الجالس أمامي في منتصف العمـــر هذه المرة.. وكان يحتسي الشاي على مائدة أمـــام المقهـــى.. الساعة الواحدة والنصف وهو يجلس هكذا.. إذن هو - كمـــا اعتقد - عاطل كالآخرين أو يعمل في أى شيء لا يهـــم.. لا يصنع هذا فرقًا لي في كل الأحوال:

- لو سمحت..

- نعم..

واستدار إليّ متسائلًا بعينيه..

- شارع كلوت بك يِتْراحْلُه منين؟

- كلوت بك؟

ثم أدار نظره لثانية تجاه الطريق وشرد...

***

"سيد"...

ألتفت وكوب الشاى في يدي.. خريج عاطل كغيري مـــن أعضاء هذا المقهى الذين لا تتغير وجوههم المهزومة من يـــوم

لآخر.. كان "محمد" - صديق القهوة - يخاطبني وهو يشير إلى التلفاز...

"إيه؟"

سألته مستفهمًا.. فقال:

"سعد سليمان"..

وسعد سليمان كما يعلم الجميع شخصية رياضية واجتماعية معروفة.. لكني لا أميل له في الواقع:

"ما له يعني؟"

"دي إعادة حلقة امبارح.. هتشوف ازاي بيشوى بتوع اتحاد الكورة".

هززت رأسي في تردد وقلت:

"يا أخي مَبَرْتاخُلُوش مش عارف ليه".

"يا ابني دا الشريف الوحيد في شلة الفساد دي".

"مش عارف ليه حاسس إنه أكبر فاسد فيهم".

هنا تدخَّل في الحوار شخص لا أعرفه.. لا يهم.. فنحن على مقهى كما ينبغي لأي مصري أن يألف:

"والله انت بتفهم يا أستاذ".

نظر إليه محمد غضبًا.. كاد أن يرد في الواقع..

"يا جماعة دا اللي عامل نفسه شريف بيسهر كل يــوم في شارع الهرم.. ورامي نفسه في حضن النـــاس الثقيلـــة.. إنتـــو فاكرينو واقف مع غيره وعامل شجاع ليه؟.. عينه على التورتة الكبيرة بالذات إنه مسنود"

أعجبني الكلام.. لكنه أثار صديقي بالطبع...

"والله أنت ما فاهم حاجة.. الكلام ده بيشنعوا بيـــه علـــى الراجل علشان اللي بيعملو فيهم.. دي أقلام مأجورة".

"الناس كلها عارفة".

"ناس مين؟.. حد منهم شافوا بيعمل حاجة؟"

تكلمت أنا وقلت في حكمة:

"مفيش دخان من غير نار.. ثم يعني مش معقول إنه بيعمـــل كل ده لوجه الله".

صاح محمد غاضبًا:

"ما إحنا مفيش فايدة فينا.. حتى اللي يـــدافع عـــن الحـــق نشكك فيه".

قال أخينا الذي لا أعرفه:

"يا أستاذ هو اللي بيمثل عليك وعلى اللي زيك دور الحمل الوديع وهو داهية"..

"يا سيدي أنت جبت الكلام ده منين؟"

"إيه رأيك إن فيه واحد أعرفه كان بيشتغل معاه.. بيعملـه المداخلات الهاتفية المضروبة.. بس الواد ده بعد كده خلع مـن الشغلانة".

هنا هتف الجالس بجواره متعجبًا.. شخص آخر لا أعرفه:

"فعلًا؟"

"آه والله"..

كنت مندهشًا مثلهم.. لكـن "محمـد" كـان مـستعدًا لاستكمال النضال مع أية معطيات:

"واحد مين ده؟.. تعرفه منين؟"

"معرفة ابن عمي".

"أهو كلام.. ولو دورت هتلاقي إنه معرفة واحـد معرفـة واحد معرفة ابن عمك"...

كان تسلسل الانفعال يوشك على انفجار فادح، لذا تدخل شخص ما في أفق المقهى بطريقة الصوت دون وجه وصاح:

"يا جدعان صلوا على النبي.. مايولَّع بجاز.. إحنا ما لنا".

"عليه الصلاة والسلام"..

يقولها الجميع في نَفَس واحد، ويبدأون في الجلوس؛ حيث إنهم قد قاموا جميعًا أثناء انفعالهم الأعمى.

"أنا بس حَبِّيت أفهِّم الأستاذ أنه ميمشيش ورا الناس اللي ليها مصلحة تهز صورة الرجل العظيم ده".

"تاني هتقولي عظيم؟"

تركتهم لحوارهم.. قتال محموم لا يستند إلى حقيقة.. كرهت مواصلة المتابعة.. فقد زاغ عقلي.. أصدِّق كل طرف حين يتكلم.. وأكذِّبه حين يسكت ويتكلم الآخر...

لا يهم.. الأمر كله لا يعنيني.. أكملت احتساء الشاي.. حتى رأيت هذا الشاب القادم نحوي.. كان يسألني عن شارع كلوت بك.

***

أجابني الشاب:

"عدِّي كده ناحية الكوبري ده واسأل".

كان قد نهض ليصف لي الطريق في الأفق...

"شكرًا يا ريِّس".

شكرته وانصرفت مسرعًا لأعبر الشارع.. خطواتي تتسارع وأنا أزيح العابرين أمامي في الاتجاه المعاكس حتى لا تصدمني السيارات.. هذه ناصية وهذه أخرى.. مشيت قليلًا بين أكتاف الناس الملتحمة.. هناك في نهاية الرصيف كان ذلك الكشك الصغير.. تلك الأكشاك العتيقة القابعة في كل مكان لترد التائهين.. جال بعقلي أن هؤلاء الكبار هم الأكثر دراية بهذه المنطقة.. وأن سؤالهم لا شك سيختصر ما أنا فيه من دوار.. أفسحت لنفسي طريقًا وعبرت إليه..

"السلام عليكم".

"وعليكم السلام يا ابني.. أأمرني".

رجل عجوز باسم...

"شارع كلوت بك يا حاج".

نهض ببطء طبيعي من جلسته العتيقة..عمر وتجارب وآلام وأفراح وتاريخ طويل.. كل هذا تحمله مفاصله المريضة ليرد لي سؤالي...

قال في وهن وصوت قدميه يحتك بالأرض:

" شارع كلوت بك؟"

***

"عم صبحي"..

نهضتُ متقلًا بروماتزيم مفاصلي المريضة.. كوني أعلـــم أن "سيد" بائع الجرائد الأرعن لا يصبر أبدًا.. شاب يعجبه شبابه.. ولو كان يعرف كيف كنت في يوم من الأيام لأدرك أن عليـــه ألا يفرح كثيرًا.. في النهاية نهضت أجرُّ قدماي جرًّا نحو نافـــذة الكشك وأشرت له:

"تعالَ يا سيد"..

"ها يا عم صبحي.. الأهرام والجمهورية كالعادة؟"

كانت المرة الأولى التي أعجز فيها عن إجابتـــه مباشـــرة.. صمتُّ للحظة وعقلي العجوز يستعيد حواري العجيـــب مـــع أبنائي بالأمس...

أنا عم (صبح).. لم أكن أبدا بالـــشخص الجاهـــل رغـــم ابتدائيتي اليتيمة.. كنت أنتمي لزمن يعشق القراءة.. أنا الذي لم يتخلَّف يومًا عن قراءة الصحف اليومية عبر سطورها الـــسوداء العزيزة دون أن تفقد عيناى منها كلمة.. في زمني المتواضـــع لم أكن أعرف غير الجرائد الرسمية.. ربما قرأت جريدة معارضـــة لمرة أو مرتين.. لكنني كنت أميل أكثر لتلك الجرائد.. لذا كان الناس من حولي من رواد المقاهي ينبهرون من متابعتي الصارمة لكل الأحداث الساخنة.. وقدرتي الفائقة على مجادلة المجـــادلين

وإفحامهم بما أقرأ.. حتى المتعلمين الأفندية منهم.. حتى صار الناس مع الوقت يعتبرونني قناة للأخبار.. لا جدال.. فقط سماع.. إذا تكلم عم (صبحي) فعلى الجميع أن ينصت.

عمر طويل....

في كل يوم رحلة مع جرائدي.. صرت أعرف الدول والعواصم.. أعرف الرؤساء والمشاهير.. صرت أستطيع أن أمدح أو أذم بناء على ما أعرف.. كانت متعتي الوحيدة رؤية نظرات الانبهار في وجوه أعرفها ولا أعرفها.. خاصة لو كانت في عيون الأفندية المتعلمين.. لا شك أن في العلم بريق وسعادة.

مرت أيام طويلة...

هكذا لم يعد المقهى يجذب أحدًا.. ولم أعد أرتاده كثيرًا.. كبرت.. ولكن عادتي ما زلت كما هي.. لكن بلا لمة أو نقاش.. فقط لنفسي ولمتعتي التي لا أعرف عنها بديلًا.

ثم كان كلام ابنتي الكبرى...

كنت بالأمس أشاهد التلفاز الصغير مع أسرتي.. كان خبرًا صغيرًا في نشرة أخبار عادية.. لكن حبي للتفلسف دفعني لأن أعقّب.. عادة قديمة لا أملك من أمرها شيئًا:

"إيران دي مش هتحبها البر أبدًا".

شطحة من شطحاتي حين أفرح بمعرفتي.. قلت كلمتي و لم أتوقع لها تعليقًا لكن التعليق جاء.. كانت ابنتي الكبرى وهي – بسم الله ما شاء الله – جامعية تدرس الأداب..

"مين قال الكلام ده يا بابا؟"

بهتُّ للتعليق.. لم يرد أحد على تعليقاتي منذ سنوات..

"يا ابنتي ما مصر كلها عارفة إن إيران بقت خطر علينا اليومين دول".

"بالعكس يا بابا.. إيران دلوقت بقت قوة عسكرية وسياسية تقيلة.. وجودها في المنطقة بيحقق توازن قوي مع إسرائيل".

بهتُّ لهذا الكلام العجيب...

"لا يا ابنتي دا اللي باين بس.. بس الحقيقة إن إيران بتلعب لنفسها.. عايزة تملك المنطقة.. ما انتي عارفة دول شيعة ونفسهم يحكموا المنطقة.. دول لُوَمَة.. ولو وقعنا تحت ضرسهم واحنا سُنَّة هيعملوا فينا أكتر من اليهود"....

قاطعتني ابنتي محتجَّة.. هي ابنة بارة والله.. لكني لا أعرف ما حدث:

"أنت بتصدق الكلام ده.. دول شوية صحفيين بيطبِّلوا للحكومة ولأمريكا!!"

هززت رأسي في ارتباك.. لم يصل النقاش مع أحد إلى هذا التعقيد منذ.. منذ.. لا.. الحقيقة أنه لم يصل أبدًا......

"يا ابنتي أنا لسه قاري النهاردة كلام يشيب عن إيران واللي هي عايزاه"...

قاطعتني ثانية....

"قرأته فين؟.. مش جرايد الحكومة يا بابا.. يعني زي ما بقول".

كان ابني الأوسط على الباب.. وقد سمع جزءًا من الحوار.. قال:

"يا سمية ماهو برده موضوع إيران يخوِّف.. أنا شوفت برنامج في التلفزيون إنما جامد.. لو الكلام ده بجد يبقى دول ناس فعلًا خطر وكويس إننا نحرَّص منهم".

"مش البرنامج بتاع الراجل اللي بيكتب في المجلة إياها.. وكمان في التلفزيون بتاع الحكومة".

ثم جرت وتناولت من غرفتها كومة من الجرائد فتحتها في عصبية لتريني شيئًا...

"شايف يا بابا المقال ده.. في حاجات كتيرة الواحد لازم يعرفها".

تناولت المقال...

كان مقالًا كبيرًا يتحدث عن عار الوقوف ضد إيران والأمة المسلمة الواحدة.. وعدم الانصياع للعبة أمريكا في التفرقة بما تدسه.. وأشياء عن سوريا ولبنان وغيرها...

كان المقال منمَّقًا ومقنِعًا بطريقة لم أعهدها من قبل.. المشكلة أني لم أشاهد هذه الجريدة من قبل.. لكني حين صارحتُ الأولاد بذلك استهجنوا.. إذن هي مشهورة.. بالتأكيد كلام مقنع.. وما قرأته صباحًا كان أيضًا مقنعًا.. هل هي حقًا جريدة حكومة ولذلك...

"يا بابا سيبك.. دول صحفيين مغرِضة.. بيقولوا على أي حاجة لا.. الحكومة تقول يمين يبقى شمال.. ولو الحكومة اتحالفت مع إيران هيشتموا في إيران تاني يوم الصبح".

"اللي بتكلم عليهم دول صحفيين كبار".

"واللي بنشوفهم بردوا صحفيين كبار".

هنا وجدت نفسي وقد خرجت كليًّا من النقاش.. وكان ذلك من الأفضل بالنسبة لي.. لقد صاروا يتكلمون فيما لا أفهم أنا فيه.. لم تعد هذه هوايتي التي اعتدتها، ولا أعتقد أنها سوف تعود أبدًا...

عجبًا...

"ايه يا عم صبحي...؟"

"ها".

استفقت من غيبوبة أفكاري على صوت سيد السَّمِج.. نظرت إليه فضحك في سماجة اعتدها منه وقال:

"فينك يا عم صبحي.. هنشتري ولا إيه؟"

لمحت الجرائد القومية في يده.. وفي "الرابطة" تكمن جريدة كتلك التي قرأتها ابنتي بالأمس.. وجرائد أخرى لا أعرفها...

"خلاص يا سيد.. شوف رزقك أنت".

لم يصدق الفتى ما قلته.. زبونه المستديم يقول لا.. انتظر لحظة ثم همس:

"خير يا عم صبحي.. أنت اشتريت من حد تاني ولا إيه؟"

"لا أبدًا بس"..

ثم جلست متقلًا أيضًا وأنا أكمل ببطء:

"بس مصدَّع حبِّتين".

***

قال لي:

"امشي من هنا يمين يا ابني".

هكذا أجابني العجوز بعد برهة من التفكير.. ثم تراجع في بطء ووهن وعاد إلى جلسته الدءوب.. وجدت نفسي وقد

همت في يمينه تلك.. لكني تابعت السير كما وصف.. لا عـــن ثقة.. ولكن عن استسلام أحمق.. سرت حتى وجدت نفـــسي وقد تاه بي الطريق تمامًا.. سيارات من هنـــا وســـيارات مـــن هناك.. أخذت نفسًا عميقًا وقد تذكرت قـــول عمـــي.. "لا يحتاج لأكثر من الترجُّل كي تصل إليه".

بلعت الابتسامة في حلقي وتابعت السير.. كانت هناك على الرصيف الآخر فتاة شابة يبدو عليها الخلـــق والـــذكاء.. لا لا تفهموني خطأً.. أنا تائه لا يسعه أن يفكـــر في شـــيء غـــير الطريق.. فضَّلت أن أسألها قبل أن أنخرط في مزيد من التيه:

"لو سمحتِ...".

أجفلت وكأنها استيقظت من بحر منامها توًّا.. حـــدَّقت فيَّ للحظة.. حتى إنني فكرت في الاعتذار.. لكن ملامحها لم تلبث أن عادت إلى طبيعتها.. تأملتني للحظة كانت كفيلة أن تعرف أنني شخص لا خوف منه.. قالت:

"نعم"..

"شارع كلوت بك لو سمحتِ.. يتراح منين؟"

عدَّلت من وضع الحجاب على رأسها مرتبكة - وكان قد انزاح عن رأسها قليلًا - أعتقد أنها قد شردت للمرة الثانية و لم تكن بالفعل تفكر لي في طريق.....

***

"زينب"..

زفرتُ في ضيق فأنا أكره تدخلّات هذه الفتاة.. كانت فتاة طيبة وأنا أعرفها من قبل أن ترتدي النقاب.. كانت في الأصل جارة لي في السكن القديم.. كانت طيبة.. لكنني لم أكن أشعر بألفة أو ود في الحديث معها.. على اعترافي بجمال حديثها ونقائها.. وكان هذا من قبل النقاب.. فلا أنكر ألا دخل لنقابها بهذا الأمر.. لم نكن أصدقاء.. لكنها صارت تميل إليّ الآن منذ أن غيرت من طبيعة ملبسي وارتديت الحجاب.. لا أدري ما يدور في رأسها بالضبط....

"نعم يا أميرة.. خير..".

"إنتي مروحة على فين؟.. على طول كده بعد الشغل".

"ما إنتي عارفة يا أميرة ماما عيانة وأنا اللي شايلة البيت كله على دماغي"....

نظرت لي في تعاطف وقالت:

"الله يكون في عونك.. أنا بس كنت عايزاكي في كلمتين".

"مممممم...".

ابتسمت في تكلُّف وقلت:

"خير"...

"أنا بس حبيت أباركلك على الحجاب".

"تاني؟!"

"وكمان أقولك.. بدل أنتي قدرتي تعملي الخطوة الصعبة دي.. ما تكمِّلي جميلك وتـ"....

لم أسمع بقية قولها.. فقد عرفته من قبل أن يقال.. تركتها تسترسل في الحديث حتى انتهت ثم قلت:

"أفكر".

"دا بجد ولا بتقفلي كلام وخلاص؟"

"يا ستي بجد"...

"على العموم إنتي لازم تفهمي إن نصيحتي ليكي دي علشان أنا بجد بحبك ومبسوطة بيكي"..

"ربنا يخليكي.. حاجة تانية؟"

شعرت بالضيق لأسلوبي.. لكني معذورة على أي حال....

"افهمي يا زينب.. أنا بنصحك لأن من غير النقاب كأنك معملتيش حاجة"...

"إزاي يعني؟"

كانت قد بدأت تثير أعصابي بكلامها على الرغم من عدم تجاوزها معي في الأسلوب.. كنت فعلًا أود الانصراف و لم يكن كلامها يناسبني الآن على الإطلاق....

"يا زينب.. النقاب هو الصح.. يا كده يا بلاش".

"جبتِ الكلام دا منين؟"

كان معها كتاب ناولتني إياه وكان بالطبع عن النقاب...

"مين الشيخ ده؟"

"ده من كبار العلماء يا زينب إزاي متعرفيهوش؟"

احمر وجهي من الغضب وقلت:

"بس أنا لسه سامعة الشيخ امبارح في التلفزيون بيقول إنه مش فرض".

"ما إنتِ عارفة مشايخ التلفزيون والحكومة".

"حكومة إيه؟ ده راجل محترم وعالم جليل".

"كان.. لحد ما بقى شغَّال عند الحكومة".

كنت قد مللت هذه الوتيرة.. لكن استفزازها لي نجح في إدخالي في مأزق لا أستطيع إغلاق الحديث الآن....

"يا أميرة إزاي بس.. دا عالم".

"واللي كاتب الكتاب ده برده عالم.. بس عالم بجد".

"يا ستي مش الشيخ اللي في التلفزيون ده قعد عمره كله يدرس دين"...

"والشيخ ده كمان قعد عمره كل بيدرس دين".

"أمّال إيه الفرق؟"

"ده بيقول الحق وده لأ؟.. شيخك ده بتاع متاع الدنيا!!"

هنا للحق أصابني سهم الارتباك.. لقد جاهدت نفسي ومن حولي كثيرًا حتى أرتدي الحجاب وألقي بكل ملابسي السابقة إلى الأبد.. والآن تأتي الأخت لتشوش على رأسي وأنا ما زلت في هزتي تلك.. والحق أني لا أقدر على الوقوف أمام كلامها هذا.. كانت حجّتي هشة كقدماي وأنا أتحدث لها الآن.....

لا أريد أن أسمع المزيد.....

"خلاص يا أميرة.. نتكلم في الموضوع ده بعدين علشان مستعجلة"..

"أنا قلتلك أهو.. كأنك معملتيش حاجة".

زفرت في توتر فتلقفتني نهاد زميلتي التي انصرف معها كل يوم وأنا أبتعد عن أميرة.....

"مالك؟.. هي أميرة قرفتك في عيشتك"...

"لا ولا حاجة".

"وطبعًا قالتلك النقاب ومش النقاب.. إنتي اللي عملتي كده في نفسك"..

هذا ما كان ينقصني.. زفرت في حرقة وقلت:

"عملت إيه بس؟"

"على الحجاب.. ما إنتي كنتي زي القمر".

"يا ست نهاد.. ما أنا زي الفل أهو وبرضي ربنا".

ابتسمت وقالت:

"إنتي فاكرة إحنا وحشين يعني؟.. ما أنا بصلي وبصوم وهحج إن شاء الله.. لكن موضوع الحجاب ده مش فرض ولا حاجة".

"نعم يا اختي؟!!"

"عارفة فلان فلان الفلاني المفكر الكبير؟"

"أيوه".

"ما هوَّ اللي قال إن مفيش دليل من الدين على إن الحجاب فرض.. يبقى نعقّد حياتنا ليه بقى؟"

"نعم يا اختي؟!"

***

أجابت مرتبكة:

"بص.. عدِّي الشارع وخش في الشارع اللي في السنص.. هو ده".

"أكثر الله من أمثالك"..

"ربنا يخليك..شكرًا".

تركتها وانصرفت.. لم تكذب وصفتها هذه المرة.. عبرت الطريق وسرت كما وصفت لي في الشارع المقابل.. عرفت تقريبًا وجهتي.. كانت لافتة الشارع هناك بالفعل...

شعرت بالامتنان لوصف عمي الدقيق.. ها هو المحل على أول الشارع كما أخبرني.. حتى الرجل العجوز بداخله كان كما وصف.. عرفت أنه هو الشخص المطلوب.. عم زكريا.. وهو من سيرشدني للمكان الذي جئت من أجله.....

اقتربت أكثر.....

"عم زكريا"..

رفع الرجل رأسه لأعلى في بطء...

"مين؟"

"أنا جايلك من طرف الحاج إسماعيل التركي"

"إسماعيل التركي؟؟"

قالها في استفهام فتعجبت.. لكني استدركت:

"أيوه.. وكنت بسألك الحاج أحمد الصاوي ألاقيه فين؟"

"أحمد مين؟"

"أحمد الصاوي".

"مفيش حد يا ابني بالاسم ده".

تعجّبتُ أكثر وأكثر.. ماذا عن تأكيدات عمي.. هل طار مني طوق النجاة هكذا وبمنتهى القسوة..

"يا حاج مش أنت عم زكريا.. زكريا هاشم؟"

قلتها في عصبية، لكنه تلقّف عصبيتي ورد في نفاد صبر:

"أيوه أنا.. وزي مابقولّك مفيش حد بالاسم ده.. حتى اسماعيل ده معرفش عنه حاجة"..

كيف هذا؟.. لقد أكد لي عمي أنه يعرفه بشدة.. انفعلت فانفعل هو الآخر.. كلمة مني وكلمة منه زاد الانفعال:

"يا فتّاح يا عليم.. يا عم غور من وشّي بقولك معرفهمش.. وأنا هانكر ليه يعني"...

قالها ثم أعطاني ظهره وراح يواصل عمله كأنه لا يراني.. أسقط في يدي.. الآن أنا تائه بالفعل.. كان هذا الرجل دليلي الوحيد إلى حل أزمتي التي جئت إلى هنا من أجلها، أو هكذا أكد عمي.. والآن يأتي هذا الشخص ليدّعي أنه لا يعرف عن الأمر شيئا.. ترى هل يكذب؟.. أم أن عمي... لكن لا.. لا يمكن لعمي أن يفعل ذلك.. إذن لماذا يكذب هذا الرجل؟.. من منهما الذي عبث بي؟ سألت الناس هنا وهناك في أرجاء

الشارع.. فأنكروا جميعًا.. باستثناء بعض العبارات من نوعية "متهيألي سمعت الاسم ده قبل كده".. البعض عاملني كالمجنون.. عرفت أن المحاولة تعد بمزيد من التيه والعبث فتوقفت...

كم تعلقت بأمل أن أجد طريقي ها هنا.. أن أحل معضلتي ها هنا.. الآن أقف وسط الطريق لا أقوى على الحراك.. لا أعرف كيف أتحرك؟ وإلى أين أذهب؟.. أندب حيرتي وضياعي وسط الشارع المزدحم الكريه.. الدنيا تجري من حولي في جنون وأنا ثابت كالصنم.

لا أفهم.. لا أفهم.. لا أجد حقيقة واحدة أستطيع أن أبدأ منها.. أدركت وأنا واقف في مكاني أني سأبقى فيه للأبد.. وجدت نفسي أجلس على الرصيف في يأس وقد عرفت أنه لا فرصة لي في خطوة واحدة.

أدركت أني غريب في هذا البلد.. أني لا أملك أبسط المعطيات كي أتحرك أو أحقق ما جئت من أجله.. أدركت أني جاهل تائه.. وأن محاولتي هذه كانت مضيعة للعمر.

أدركت أنني قد ضعت في زحام نفسي...

أدركت والدنيا تندفع من حولي كدوامة أنني قد فقدت الطريق.. لأني لم أعد أملك لنفسي ولعقلي ولو نقطة.. نقطة للارتكاز...



التاكسي

لم تكن تدري حقًّا أين هي.. لم تكن تشعر بالزمن.. عيناها المسالمتان كطائر يسبح في الظل.. ترمقان كل شيء في حيرة بريئة.. تتحركان في جزع كقطرة من الماء على طرف نبتة ندية توشك أن تقع.. ترتعش.. تعجز حتى عن الإحساس بضوء الشمس أو نور القمر.. لم تكن تدري شيئًا.. أمواج الخوف تسحب روحها العذراء إلى أنياب وحش مفترس.. وحيدة ضعيفة.. صفحة عقلها البيضاء تتمزق بين كفي طفل صغير.. ناصعة لم يدنِّسها حبر الأفكار.. كان كيانها الخائف كله ملك يمين شيء واحد.. شيء واحد ظل يعبث بعقلها وينهش قلبها كوحش جائع صغير.. ولدها.. ذلك الصغير الذابل الجاثي فوق كتفها الأيمن.. الصغير الذي منعه المرض حتى عن الصراخ.. عن الأنين.. عن أبسط علامات الحياة.. حملته.. سارت به ملهوفة مذعورة.. خطواتها المسرعة العاجزة تغوص في بحر من الرمال.. رمال الرصيف المزدحم.. تسير.. تمر... تلقي بحبل آمالها بين أمواج الضياع على طول البصر.. تسعى لعبور

الشارع.. تلقي بظلال همومها على الرصيف الآخر بحثًا عن النجاة.. عمن ينقذ ابنها من الهلاك.

لكم كان الأمر شاقًا.. لم تكن تتوقع أن ترى هذا السيل الجارف من السيارات يعوق عبورها.. تجري أمامها وكأنها تنبش في أعماق كيانها لتريها حياة لم تكن أبدًا جزءًا منها.. وقفت.. العرق يدمي عينيها.. والعادم يحيط بأنفاسها كموكب الجنازة.. لم تكن تفكر لحظة أن انتظارها سوف يطول إلى هذا الحد القاسي.. ولكم كانت ساذجة.. تحدق في كتل الرخاء العابرة في غيظ وعجز.. وحرارة الطفل على صدرها تكاد تحرق صدرها كأوراق الخريف.. يمضي الوقت فينهش قلبها المعذب رويدًا رويدًا كأنما لا أمل في الانتظار.

كانت حالة اليائس على كتفها تزداد سوءًا.. وهي كالموج.. تتقدم فلا تصل.. تنسحب فتبحث عن كرة أخرى.. هكذا دون أن يكشف لها طريقها المظلم عن ثغرة تعبر منها إلى الرصيف الآخر.. لم تمل.. ظلت ثابتة تراقب الأمواج في انتظار لحظة توقفها.. الوقت يمضي.. والدخان يزداد.. والصغير يرتجف.. والأم واقفة تحدق.. تعض شفتيها.. تصارع انقباض صدرها.. تكتم دموعها.. تروض صرختها.. لكن شيئًا لم يتغير.. تبقى الأمور كما هي أو تزداد سوءًا وقسوة.. وجدت كيانها الضعيف يثور.. يصرخ.. لا بد من وسيلة.. رفعت

رأسها إلى السماء وكأنما ترجو النجدة ممن هو أقدر على كل ذلك.. ممن أمر ابنها بيده.

تطلعت صامتة إلى الجبهة الأخرى قبل أن تستدير من جديد إلى الجيش العابر من أمامها دونما توقف.. فجأة انتفضت روحها كطفل وليد.. ثمة شيء قد تغير.. أدارت رأسها ملهوفة كي تفهم.. رأت سيارة معطلة واقفة في منتصف الشارع لتعترض هذا الفيضان العنيف وتجبره على أن يسكن للحظة.. وكأنَّ صاحبها لمس روح هذه السيدة المقهورة.. وكأنما شاء لها القدر ألا تموت حسرة على ولدها.

لم تفكر.. لم تضع لحظة.. سحبت ثوبها الأسود واندفعت في المتاهة.. تنسال ككائن أوَّلي بين ثنايا المعدن الملتصق.. اندفعت بصغيرها بين سيارة أجرة وأخرى مملوكة وسط نيران آلات التنبيه التي تقذفها كل سيارة على الأخرى كي تقذفها بدورها على السيارة التي تليها...

لكن اللحظة ابتلعت أصداف حظها السعيد بين الأمواج وأعادت إليها واقعها الأليم.. كانت قد خاضت ثلث الطريق أو أقل أمام سيارة الأجرة حين عادت سيارة المقدمة إلى السير من جديد.. لتتبعها السيارات الواحدة تلو الأخرى.. لم تكن قد شطرت ثلث الطريق أمام هذه السيارة بعد، وإذا بسائقها يضرب على بوق التنبيه وكأنما يهددها، ثم أطلق سيارته بدفعة قصيرة إلى الأمام كتأكيد سافر لغضبه وتهديده.. انتفضت..

تراجعت خطوة للوراء.. دق الصوت من سيارته كألف صرخة في أذن أمومتها.. استدارت في حدة.. راحت تحدق في وجه السائق في حنق وغيظ.. لكنه لم يكترث.. لم يتوقّف.. وتعالى صوت بوقه أكثر حدة واندفاعًا.. صوت يسبُّها.. يلعنها.. توقفت ولم تتحرك.. زادت نظراتها حدة وكراهية.. بدا وكأنَّ بوقه قد أشعل ما تبقّى من فتيل أعصابها.. قد مزّق عقلها.. لم تحاول حتى أن تقطع المسافة الباقية لها على الطريق.. فقط راحت ترمق عينيه مباشرة وكأنما تهتف في وجهه.. ماذا تريد؟.. أليس من حقي أن أمر.. ومن واجبك أن تتركني أفعل.. لا أخالك أكثر من لهفة وعجلة كي تدفعني عن طريقك هكذا.. ماذا بك؟.. ألا ترى ابني الذابل فوق كتفي.. ألم تشعر بشفقة؟.. بأي شيء؟!

لم يُبْدِ السائق شيئًا مما تصوَّرَتْ.. لم يَبْدُ عليه حتى رؤيته لنظرتها الغاضبة وما فيها من حمم الأحقاد والألم.. ولم يتوقف.. يده فوق بوقه المزعج.. ويد أخرى تشير لها بالابتعاد في غضب.. تعالى صوت بوقه.. وتعالى صوت أبواق الآخرين تصرخ في وجهها.. يواجهها كجيش جرار.. بدا وكأن السائق قد وجد في موقفها تحديًا له.. لعبة أثارت أعصابه.. وكذلك هي.. لم تفكر.. تقدمت حتى انتصفت السيارة ثم ارتسمت أمامها كتمثال.. أبت أن تتحرك.. عيناها ثابتتان على السائق بكل كيان الغضب والمرارة الوليد في روحها.. لقد أشعل النار وآن له أن يذوق سخطها.. سخط امرأة مغلوبة.. مطحونة..

حافقة.. ستحط المرآة ذاقت من الزمن ما ذاقت.. لم يعد الأمر بالنسبة لها مجرد طريق تريد عبوره.. لم يعد كذلك أبدًا.

لم يتوقع السائق ما فعلت.. شلّته الدهشة لثانية قبل أن يعود لثورته.. وتفجّر الغضب كالبركان في صدره.. راح يلعن تلك الفتاة العابسة التي وجدت في إنسان مقهور عاجز مثله تسلية لها.. تذكّر رزقه ومعيشته.. تذكر أولاده.. تذكر ديونه.. وجد قلبه يشتعل.. راح يضرب عجلة القيادة في هستيرية.. دون أن تهتز.. دون أن تفكر.. دون حتى أن تدير وجهها الشاحب عن السائق.. كانت بذلك تتحدى.. تصرخ.. وتثأر.. تثأر من كل شيء.. راح صياح الأبواق يطرق أذنيها بلا رحمة.. يتعالى أكثر فأكثر.. لكنها أبت.. لم تتوقف لحظة عن التحديق في خصمها.. بدا وكأن السائق قد فقد للحظة صلابته أمام موقف هذا الجبل العنيد.. وصوت الأبواق قد انصرف عنها ليلعنه هو بألف نعت.. راحت إحدى كفيه تنسحب ببطء من فوق عجلة القيادة.. والأبواق تتعالى.. تتعالى.. والمرأة بلا حراك.

ثم انسحبت يده كاملة عن عجلة القيادة.. وتدريجيًا تلاشى صوت بوقه.. فقط رمقها بنظرة كارهة ثم أشار لها بكفه أن تمر في غيظ.. في عجز.. وما إن فعل حتى لان وجهها الحجري تدريجيًا، وعلت شفتيها ابتسامة ظافرة كي تعلن عن راحة اجتاحت قلبها المكدود.. راحة أطفأت نار همومها وتركتها تبتسم لنصر لم تعشه بعمرها.. اعتدلت.. عبرت في ثقة أمام

سيارته فأطلق لها ضربة بوق أخيرة تستعجلها قبل أن يعبر الطريق خلفها والغيظ يحرق صدره.

لكن ابتسامتها لم تدم كثيرًا على ثغرها.. لم تدم حتى تصل إلى الضفة الأخرى من الشارع.. سارت خطوتين قبل أن تدرك أنها لم تربح شيئًا من هذ المعركة المرتجلة.. في الواقع قد خسرت كل شيء.

أدركت ذلك وهي تتحسس ابنها...

أدركت ذلك بعد أن مضي (التاكسي).

ثلاثون عامًا

تركني وانصرف.. لم يقل لي شيئًا غير: (لقد ظهرت نتائج العيِّنة).

- ثم؟

قلتها متوجِّسًا ونظرت إليه.. لكنه لم يرفع عينيه إليَّ مطلقًا...

- إنه سرطان.. سوف يمر عليك الطبيب ستيف ليخبرك بالنظام العلاجي الذي سوف يبدأ من الغد.. آسف.

اكتفى بهذا ولم يعقِّب، ثم استدار لينصرف في أقل من ثانية.. وجدت نفسي لحظة أحدِّق فيه وكأنني لم أكن طرفًا في هذا الحوار.. تسرب الدم تدريجيًّا إلى عقلي ووجدت نفسي أصرخ في جنون:

- ماذا تقول أيها الأحمق؟

لكنه - الطبيب الشاب - اكتفى بأن استدار لي مرة أخرى وقد انتابه ضيق مكتوم.. ثم قال بوجه بارد:

- آسف مرة أخرى.

انفجرت في وجهه وقد امتلأت عيناي بدموع الصدمة:

- آسف؟!!! أنا شاب في الثلاثين من عمري..أي سرطان؟! أنت تخرّف ولا شك.. أنت أحمق.. وهذه مستشفى رديء.. أنتم تفزعون الناس بجهلكم.

لكنه لم يستمع إلي وتركني وانصرف.. انصرف وكأنه لم يحطم حياتي منذ لحظات.. وكأنه لم يحكم على حياتي القصيرة بالزوال.. ضربت الباب بقدمي في ثورة وقد انتابتني حالة من السعار:

- أيها القذر.. أتتركني وتنصرف؟ أيها القذر...

لكنه انصرف.. انصرف فقط ليتركني أواجه حقيقة ما أنا فيه بعيدًا عنه.. وقفت والمرآة في وجهي.. الدموع تنسال على خدي في بطء.. هذا ليس حقيقي.. لا يمكن أن يكون حقيقيًّا.. وجدت يداياي ترتعشان كالمحموم..ووجدت ركبتاي تصطدمان بصوت مسموع.

"سرطان.. سرطان.. سرطان.. سرطان.. سرطان"....

أنا.. سرطان.. أنا.. أموت.. أنا سرطان.. أنا سرطان.. أنا أموت.. أموت...

نَدَّت مني بعض هذه الكلمات بصوت مرتعش.. فبدت كهمهمات غير معلومة.. وجدت نفسي أسقط على فراشي.. ووجدت الدموع تنفجر مني كالبركان.

"سرطان.. سرطان"..

ثم نَدَّت مني صرخة كالجحيم...

العام التاسع والعشرون

هذا هو عيد ميلادي التاسع والعشرين...

لست من هؤلاء السُّذَّج الذين يتألَّمون للغربة ويجترون مشاعر الاشتياق والحنين كلما صادفهم احتفال ما خارج الوطن.. بالعكس.. أنا هنا حيث أردت تمامًا.. يملأني الاحساس بالنجاح والفخر.. أحتفل داخل شقتي الصغيرة وسط مجموعة من زملاء العمل ممن نجحت في كسب ودهم ومشاعرهم خلال هذه الأعوام القصيرة...

ألمانيا..

الكثيرون يحلمون بالوجود هنا.. بالنجاح هنا.. خاصة من هم في مثل مجالي.. نسيت أن أقول إني أعمل بالهندسة المدنيَّة.. حصلت على بعثة من الجامعة.. وساعدت بعض الشهادات والامتحانات المعادلة التي خضتُها خصيصًا لهذا الغرض في أن تتيح لي فرصة للعمل مع الأستاذ المشرف عليَّ هنا في ألمانيا.. والذي فهم عقلي الطموح منذ اللحظة الأولى.. وانبهر لكم ما أعددته في سني الصغيرة.. وقرر أن يساعدني ويستفيد من رأسي كذلك...

الآن أنا هنا.. واحد من كبار المهندسين بداخل واحدة من كبرى الشركات الألمانية.. وبعقد مغرٍ..وفي انتظار قفزة جديدة

متوقعة في عملي خلال أيام.. رئيسي في العمل - بنفسه - اعترف لي ولعقليتي بالنجاح والتفوق.. وهو الذي قلّما يرضى بأي شيء مهما كان.. حتى (هانز) الذي كثيرًا ما ضيَّق عليَّ الخناق منذ صرت إلى هنا انزاح عن الطريق.. لم يكن أحد يصدِّق أن طموحاتي التي طالما أثارت سخرية الآخرين قد تصير واقعًا يومًا من الأيام.. وبهذه السرعة...

كانت لي عادة من الصغر.. هي أن أتوقف عند عيد ميلادي.. أتأمَّل مواضع أقدامي.. أسترجع نجاحاتي وإخفاقاتي.. وأفكر من جديد لأحقق المزيد.. لكنني هذا العام بالتحديد لم أكن أحتاج للكثير من المراجعة والتفكير.. أنا اليوم في قمة النجاح.. أنا اليوم راضٍ بحق...

"أحمد.. أين أنت؟.. هل جئنا لنحتفل بأنفسنا؟"

ضحكات مرحة ثم تحملني الأذرع حملًا من الشرفة إلى الداخل...

اليوم الثاني

لا شيء غير الصمت.. مجرى الدموع الجاف على وجنتي وجسدي المريض يتمدد بلا روح فوق الفراش.. حتى النافذة تواجهني بالغيوم.. أنظر في الفراغ وعقلي يذوب مني في كل اتجاه.. أين أنا؟.. الضباب يحيط برأسي كالمخدر.. حالة هي بين اليقظة والنوم.. فقط لساني السقيم يتمتم من حين لآخر...

"سرطان"...

وجهي الشاحب لا يظهر ما في قلبي من نار.. نار الصدمة والعجز.. هو شيء لا أقدر أن ألوم عليه نفسي أو أجد أحدًا أعنِّفه عليه.. هو شيء أشد من كل هذا.. هو الموت وقد جاءني.. لكنه ينتظر.. فقط ينتظر...

"سرطان"...

دقات على الباب.. ذلك الصوت المكرر الكريه الذي لم يعد يعذبني شيء في الدنيا أكثر منه.. تلك الطرقات التي تنهش خلوة نفسك وتدفع ألسنة العالم كي تحرق حياتك.. لم يقدر لساني على الرد.. ارتعشت شفتاي لكني لم أتكلم.. كانت الممرضة المسئولة ومعها العاملة تدخل الطعام.

إشارة من يدي.. إشارة ضعيفة تعني لا أريد.. هنا بدأت الغبية تتكلم.. ذاك الكلام الذي لا أريد أن أسمعه...

"تحتاج إلى غذاء و....".

"العلاج وحده لا...".

"إرادتك يمكنها...".

هنا وجدت نفسي أنفجر في البكاء.. لا بكاء الضعف.. ولكن بكاء السخط والغضب.. قفزت من فراشي وأوشكت أن أنقض عليها.. حتى إنها تراجعت للوراء مفزوعة.. واندفعت تفتح الباب.. رحت أفرغ غضبي وسخطي لا أدري ما أقول:

"اصمتي.. أنت لا تفهمين شيئًا.. أنت لا تعرفين معنى الحياة لشاب مثلي.. ماذا تساوي حياتك أمثالك مثلًا؟.. حشرة.. اغربي عني".

كانت قد اندفعت بالفعل خارج الغرفة.. لكني اندفعت خلفها حتى وصلت إلى الباب وواصلت:

"حشرة لا تساوي شيئًا.. وكلامك مثل قيمتك.. كلام معسول منمّق نظير مرتبك"..

....

"عليكم ألف لعنة"..

العام الثامن والعشرون

لم يكن من عادتي ألا احتفل بعيد ميلادي.. لكني اليوم فقط لن أفعل.. لا لشيء.. ولكن لانشغالي القاتل بعملي.. أنا اليوم في مكتبي بالشركة.. والساعة قد تجاوزت التاسعة مساء.. لا أحد سواي في المكان بأكمله.. ومصباح مكتبي المضيء بجواري.. لكن الأمر يستحق.. حتمًا يستحق.

كنت على أعتاب قفزة كبيرة في العمل.. خطوة ما كنت لأحلم بها.. خاصة وعلاقتي بمجلس الإدارة هذا الشهر في قمَّتها.. الكل الآن راضٍ عن عملي وأفكاري.. كان الحماس يلهبني.. وأصررت على تجاوز كل الخطوط.. خاصة هذه الأيام.. هي فرصة لن تتكرر كي أثبت لهم عبقرية فكري...

لم يكن هذا هو السبب الوحيد.. ثمة شيء آخر كان يعبث بأعصابي هذه الليلة.. وربما كان هو السبب الأعظم لغرقي في العمل حتى هذه الساعة المتأخرة.. ربما كي أزيل عن عقلي عبء التفكير فيه.. كنت أعلم أن دكتور (بيتر) رئيسي في العمل يقرأ الآن الملف الذي قدمته له بخصوص (هانز).. تلك الأوراق التي أعلم أن فيها نهايته.. عبئًا ثقيلًا ارتمى على ظهري منذ قَدمتُ إلى ألمانيا بسبب ذلك المنافس المتعجرف.. كان

يعرف كيف يتصيَّد الأخطاء لي وكنت أتجنبه.. لكنني الآن لست الغر الساذج ابن الأمس.. أنا الآن أعرف كيف أدافع عن نفسي جيدًا..

الآن هو يقرأ...

فهل يأتي الغد بمفاجأة كبيرة.. لي وله؟

اليوم الثالث

أشعر بالسقم في كل أجزاء جسدي.. كلما فكرت في مصيري كلما ازداد الألم العاصر في قلبي.. أسير في ترهُّل نحو باب غرفتي وقد اشتدت رغبتي في القيء.. قيء كل شيء.. تلك الرغبة المجنونة في ألّا أرى الغد.. ذلك الغد الذي ألغيت من مرادفته كلمة المفاجأة والمكسب والفرح والخبر السعيد.. ليس بعد الآن.. ذبت في شرودي وآلامي حتى اصطدم كتفي خطأً بجسد مريض آخر حتى كدت أسقط.. نظرت إليه بكل الغل في أعماقي لكنه مال علي وقال:

"أعتذر"..

"ليكن".

كنت غاضبًا.. لكن قلبي لا يقوى على الكلام.. أمّا هو فكان قلبه أقوى مني حالًا:

"أأنت بخير؟.. لقد سمعت صياحك بالأمس.. وكنت أتمنى أن أكلمك.. أعلم بطبيعة مرضك.. فنحن نتلقّى العلاج سويًّا.. وكنت أريد..".

زجرته في ضيق لكنه أكمل:

"عزيزي إنه القدر.. كلنا يتألم و...".

صحت فيه غاضبًا:

"لا ليس كلنا.. مهما تألمتم فإنكم لا تعرفون كيف أتألم أنا.. لا تعرفون من كنت.. وكيف كنت قبل هذه اللعنة.. كنت..".

قاطعني في حزم:

"كلنا مهم وعظيم في نظر نفسه وأهله".

صرخت في وجهه:

"لكنني كنت كذلك بالفعل.. لقد كنت مجرد طالب في جامعة من جامعات العالم الثالث.. والآن انظر...".

قاطعني ثانية:

"لا تحتاج لكل هذا كي لا تحب أن تموت.. لكنك يجب أن تعلم أن حياتك مقدرة.. وأنه لا مستقبل لك بعد اليوم الذي من المفترض فيه أن تموت.. هنا يظهر معدن الإيمان ال...".

صرخت في وجهه:

"لا ينقصني الآن درس وموعظة منك.. أنت لا تشعر بي.. أنت لا تفهم.. اغرب عني".

حال بيني وبين باب غرفتي بجسده وقال:

"انتظر لحظة فـ...".

لكنه لم يكملها.. لأني وجدت نفسي وقد دفعته بكلتا يدي ليطلق صيحة متألمة.. ويفترش الأرض كالقتيل.. لا أعرف كيف فعلتها.. لكني شعرت في هذه اللحظة بأنه يستحق.

"من؟"

ظللت أرددها كالمجنون وأنا أغدو وأروح بداخل مكتبي.. وجهي مشتعل كالحريق.. وأعصابي تكاد تخرج من فتحات جلدي.. وكان (بيير) زميلي الفرنسي على مكتبه فنهرني قائلًا:

"كفى يا أحمد.. لقد أصبتني بالدوار.. أريد أن أركّز في عملي".

"ماذا تريدني أن أفعل بالله عليك؟ الآن.. وفي هذا التوقيت.. أنا لم أكد أثبّت أقدامي الهزيلة في الشركة بعد فترة طويلة من التخبُّط وعدم التكيف.. وأخيرًا بعد أن بدأ المدير في تقبُّل وجودي وتقديره.. الآن.. والآن فقط.. تأتيني هذه الضربة الموجعة...".

"هل عرفتَ التفاصيل؟"

"لا شيء غير ما تعرفه.. هناك من وشى بي عند المدير بخصوص مشروع مبنى قاعة الاجتماعات الأخير.. لقد أخبره بكل ما بدر مني".

هز (بيير) رأسه وقال:

"لكنك بالفعل أخطأت يا أحمد".

كنت بداخلي أعلم ذلك.. لكنني ظننت أن خطئي قد اختفى بإتقان بين الأحداث.. وأنني نجحت بشكل أو بآخر في تداركه.. لكن ما حدث في الواقع يختلف.. هناك من كشف هذا أمام المدير.. هناك من يسعى لإزالتي من هذا البلد من قبل أن أبدأ.

"لكن (بيير).. لقد أجدت إخفاء خطئي ومر الأمر بسلام.. فلماذا يسعى أحدهم لتدميري؟"

نهض (بيير) باسمًا واستند على حافة مكتبه عاقدًا ساعديه وقال:

"حقًا لا تعرف من؟"

استدرت إليه في دهشة فقال:

"ساذج كعادتي بك وبكل المستجدين من أمثالك.. إنه صديقك يا عزيزي".

"هانز؟"

قلتها في ذهول فأردف:

"عزيزي لا تغضب.. هذا هو (هانز).. هو رجل شديدة الأمانة في عمله وتقاريره.. شديد الحرص على سير الأمور.. لذا هو ينجح.. ولذا يثق به الجميع".

"هانز؟"

قلتها بكل الغل والكراهية المشتعلة في قلبي.. فابتسم (بيير) في شفقة ثم وضع ذراعه على كتفي وقال:

"دعك من كل هذا وأخبرني...".

نظرته له شاردًا حائرًا فأكمل:

"كيف سنحتفل بعيد ميلادك هذا العام؟"

اليوم الرابع

لا شيء سوى الصمت.. أغلقت مصباح غرفتي وأنا على علم بأنني لن أنام.. فقط أعود بذاكرتي لكل لحظة برّاقة في حياتي وأبكي.. دموع بطيئة قاسية لا تريح.. شعور قاس بالانتظار.. انتظار الموت.. لا أحلام.. لا طموح.. ولا معنى لكلمة السرور.. جسدي منهك.. وعقلي مضطرب.. وقلبي يتألم في ضعف.

هنا لا أدري لماذا تذكّرت الشخص الذي انفعلت عليه بالأمس.. شعرت لوهلة بالشفقة وبجرم ما فعلت.. شعور لم يستمر لأكثر من ثوانٍ تذكرت فيها حياتي وحالي ثم كلماته...

زال الشعور بالشفقة وعادت مشاعري تتأجج بالغضب تجاه كلامه المستفز.. شعرت أن ما فعلته هو أقل ما ينبغي.

ثم ذهبت الفكرة وعاد السواد يخيم من جديد.

العام السادس والعشرون

أول عيد ميلاد لي هنا في ألمانيا.. ما زال الاضطراب يأخذني وما زال الشعور بالرهبة وعدم التكيُّف يسيطر على أفعالي.. أقف أسفل شركتي في انتظار وسيلة مواصلات تأخذني من هنا.. السخيف أنني ما زلت أعاني أثار عدم التكيف هذه حتى في أدق تفاصيل حياتي.. أبسطها أن أي مواطن ألماني عاقل يدرك أهمية ألا يخرج من باب بيته في هذا الجو البارد إلا بمظلة أما أنا فلا ألاحظ.. الآن هي تمطر على رأسي وأنا أقف في العراء كأحمق من دون ساتر...

صوت سيارة تقف إلى جواري...

"أنت هناك؟"

كان هذا الذي يتكلم هو سائق السيارة.. تعرَّفت عليه بصعوبة.. إنه (هانز)...

"أنت أيها الموظف الجديد.. هل جننت؟.. الجو قاتل ها هنا فماذا تنتظر؟"

حذرني الكثيرون منه.. حتى إنني صرت أخشاه وأتحاشى التعامل معه.. لا يبدو عليه شيء قط..لكن في بلد غريب كهذه صار الخوف هو القاعدة والسبيل..

"لا شيء سيد هانز.. أنتظر سيارة تقلني".

"في هذا الجو؟.. أيها المجنون.. اركب ولا تخجل.. هيا".

قالها باسمًا.. حتى إنني احترت فيما يقولونه عنه.. اعتذرت فألح.. هكذا حتى صرت داخل سيارته بالفعل...

بدأ يقود وقال:

"حسنًا عزيزي.. عفوًا ماذا كان اسمك..اعذرني فإنني أنسى الأسماء بسهولة".

"اسمي أحمد".

"وأنا هانز.. حسنًا أحمد.. أين تسكن؟"

"في فندق الأحلام.. إنه..".

"فندق؟"

قالها مستنكرًا وأردف:

"إنه لا يستحق ما يُدفع فيه.. ستفقد مرتبك في الأسبوع الأول إذن..حسنًا..سنمر على الفندق ونأخذ حاجياتك وستقيم معي في سكني حتى أجد لك سكنًا مناسبًا"..

"ولكن...".

"إنني لا أقدِّم معروفًا.. أنا أقيم بمفردي وتكاد الوحدة تقتلني.. كما إنني من ميونخ ولست من برلين.. ولا أعرف أحدًا هنا لأنني أنتقلت منذ ثلاثة أشهر فقط"..

"ولكن..".

"أنت إنسان طيب وتستحق أن أساعدك على اجتيازك أيامك الأولى هنا.. فلا تمنعني.. ربما صرتَ أول أصدقائي هنا في برلين".

"هذا يشرفني".

زاد من سرعته في حين بقيت أنا في حيرة من أمري.. شعرت بالامتنان الشديد له ولشخصه اللطيف الودود.. لكن عقلي المتردد قال كلمته الأخيرة.

الحذر واجب...

اليوم الخامس

لم يكن هناك من مهرب من قدري.. كيف أهرب منه وهو يذكرني بنفسه في كل دقيقة.. أتذكره حين أصرخ من الألم المبرح فلا أتدارك نفسي إلا والمحقن يدفع بمسكنه في أوردتي.. فيصيبني الإعياء وأنام كالحجر.. أتذكره وأنا أرى تساقط شعري.. وأتألم كل ساعة وأنا أفرغ ما في جوفي.. تبقى المرارة في حلقي.. أبكي ثم أبكي.. ويغلبني النوم مجددًا.

هنا جاءني خاطر غريب...

أهلي...

أبي وأمي.. مر شهران دون أن يعلما عني شيئًا.. أشعر بالخجل كلما تذكرت أن هذا دربي معهما منذ جئت إلى هنا.. ربما ليس منذ جئت.. ولكن منذ أن زالت مشاكلي وبدأتُ أتكيَّف على المعيشة وعلى موضعي الجديد.

شعرت بالألم وأنا أفكر كم كنت مقصرًا في حقهما.. شعور بالخجل تواجهه مقاومة عنيفة من داخلي.. لم يكن هذا بيدي.. إنها الحياة الصعبة هنا في ألمانيا.. أنا لم آتِ لأتنزَّه.. وكل لحظة من وقتي كانت مليئة بالكفاح والألم.. لقد كنت

مقصرًا.. نعم.. لكني على الأقل أفضل من كثيرين لا يملكون أي عذر.

كان الخاطر عنيفًا.. لا أدري.. لكني بالفعل أحتاج إليهما..

لكن هذا الاتصال الآن صار بالفعل شديد الصعوبة...

العام الخامس والعشرون

"كل عام وأنت بخير يا بني".

الدموع في عيني أبي وهو يضمني إليه.. أول عيد ميلاد أقضيه بعيدًا عنه.. حقيبتي في يدي ويدي الأخرى تحتويه في تأثر.. ليته يعلم أن قلبي يتألم أكثر مما يتألم هو لهذا الفراق.. لا أتخيل أن أقضي يومًا واحدًا من دونهما.. وأكاد أرى فشلي وعودتي القريبة من ألمانيا لهذا السبب بالذات.

"سامحني يا أبي.. ليس بيدي".

"يا بني هذا مستقبلك.. وهذه خطوة عظيمة لك".

هنا ربتت يد أمي على كتفي وقالت:

"اجعلنا نطمئن عليك باستمرار يا بني".

قَبَّلتُ يدها وقلت:

"كل يوم يا أمي"..

الصوت يدوِّي بداخل المطار ليعلن عن قرب قيام رحلتي.. ملأني الشعور بالضياع وكأنني طفل تائه.. أغمضت عيني ودعوت الله.. لا أدري ماذا سيحدث؟

نظرت إلى أبي فوجدت ابتسامته المشجِّعة.. شعرت ببعض الأمان وقررت ألا أخذل تلك الابتسامة أبدًا...

اليوم السادس

كانت المرة الأولى.. التي أنظر فيها من الشرفة...

كانت هجمة جديدة من القيء دفعتني دفعًا لكي أفتح نافذتي تاركًا بعض الهواء ينساب إلى صدري.

ورأيتهم...

رأيت الحياة...

لم أكن قد نظرت إلى المرآة منذ زمن.. لكنني أتخيل كيف صار شكلي.. وجدت نفسي أحدق في حديقة المستشفى.. أتأمل الجالسين فيها.. كان أكثرهم قد قارب على الشفاء.. منهم من أتى من أجل زائدة دودية أو حصوات أو حتى لعملية تجميلية...

شعور سلبي بالكراهية والحقد انتابني فجأة.. شعور انتشر في جسدي كله وأنا أراهم يبتسمون.. أقاربهم من حولهم.. "هل أنت بخير؟".. "نعم أفضل كثيرًا".. "يومان ويمكنك المغادرة".. "اشتقت لكم ولعملي".."الكل في انتظارك"..أكاد أسمع أقوالهم من وجوههم.. وجدت نفسي أغلق نافذتي كي أرحم نفسي وأرحمهم من نفسي التي اندفعت في تساؤلات شيطانية لم أكن أقدر في حالتي هذه على مقاومتها"...

"لماذا أنا؟.. لماذا أنا؟"

العام الرابع والعشرون

"ماذا حدث يا أحمد؟"

لم يكن هناك من يستطيع إيقاف اندفاعي في هذه اللحظة بالذات.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا ألقي بكل محتويات مكتبي ومكتبتي على الأرض.. يحاول أبي جاهدًا أن يمنعني أو أن يفهم لكنني كنت في لحظة من الجنون....

"يا أحمد يا بني اهدأ.. دعني أفهم أولًا على الأقل".

رددت في هياج:

"ضاع كل شيء.. الوغد الحقير.. طبعًا.. حصل على ما أراد".

"من هو يا أحمد؟"

"متولي.. حسن متولي يا أبي.. أخذ بعثتي"..

"أخذ ماذا؟.. كيف أخذها؟"

"لقد استغلَّ نفوذ والده أستاذ الجامعة وعمه رجل الأعمال.. أخذ حقي عيانًا أمام الناس"..

رد أبي في توتر:

"وكيف عرفت أنها بعثتك؟"

قلت في غضب:

"الكل يعرف أنها كذلك.. الكل يا أبي.. لكنه هذا الوغد الفاشل.. دائمًا يلعب بورقة نفوذه منذ كان طالبًا غبيًّا بالجامعة.. ربما من قبل ذلك.. أنا لا أعرف كيف حصل على مجموع الهندسة من الأساس؟"

ربت أبي على كتفي وقال في أسى:

"لا تحزن يا بني.. إنه النصيب".

"لا تقل النصيب.. الظلم ليس نصيبًا.. ذلك الوغد وعمه.. اقرأ ماذا يكتبون عنه"...

لم يجد أبي قولًا يقال.. صمت وقد أدرك ألا مجال للحديث معي الآن...

"أوغاد.. عائلة من الأوغاد"...

ثم ألقيت ما تبقّى من فوق مكتبي على الأرض.

اليوم السابع

يوم جديد.. الغصة في حلقي.. يوم جديد يقربني من النهاية.. لا أقوى على النهوض.. الآلام تحرق جسدي والتعب القاتل يكبلني.. كذلك الشعور باللا أهمية.. لا أقوى ولا أرغب على النهوض.. تقلّبت على جنبي تاركًا الاكتئاب ينهش قلبي وعقلي.. لكنني لن أبكي اليوم.. كفاني دموعًا.. كفاني... عجيب...

هذا الظرف.. لم أره.. عندما أمسكته عرفته من أول وهلة.. كان شيكًا بمرتبي خلال الشهر السابق.. لا بد أن أحدهم جلبه إلى المستشفى...

هنا دق الجرس في عقلي.. دق رغم كل ما أنا فيه...

لا أنكر أني جئت ألمانيا من أجل أن أتعلّم.. لكن انبهاري بالشركات الضخمة هنا دفعني أن أحلم بإنشاء شركتي الخاصة حين أعود.. لقد كنت بالفعل مدخرًا عبقريًا ويشهد على ذلك رصيد ما ادخرته منذ جئت.

مدخراتي.. كيف لم أفكر في ذلك؟

وضعت الظرف بيد مرتعشة مريضة جانبًا وتركت عقلي يعمل.. لا أدري كيف أتصرّف ولمن أهديها؟.. أهلي.. أم عمل خير أم..

هنا فقط وجدت أفكاري تضع أملًا في الحياة.. وجدت نفسي أقدِّر ماذا لو لم أمت.. فكرة عجيبة.. لكنها جعلتني أتردد.. جعلتني ألغي فكرة التصرُّف فيها الآن...

أخذت نفسًا عميقًا وغرقت في فراشي.. لا مجال لمزيد من التفكير...

فقط عدت أذكر أهلي مجددًا.. وعاد الألم لي مرة أخرى.

العام الثالث والعشرون

لم أكن أعرف لماذا تحولت تهنئتها لي بعيد ميلادي إلى هذا المشهد المأساوي؟..

"ندى.. أنا آسف".

قلتها في توتر.. فرفعت عيناها في وجهس.. عينان غارقتان في الدموع والكراهية.

"ندى.. لم أكن أريد أن أخدعك.. لن أضيع عمرك أكثر من هذا".

"ألم تكن تعرف منذ البداية أنك لن تقدر على الارتباط بي؟.. لماذا لم تصارحني منذ البداية؟.. ماذا كنت تظنني؟"

لم أكن أملك ما يقال.. نعم كنت أعرف.. لكنني كنت أحبها.. لا أتخيل أن أقول لها صراحة ما يجعلها تتركني وتذهب.. كنت أقنع نفسي أن الظروف ولا شك سوف تتحسن وأن مرور الوقت لصالحي.. لكن لحظة المواجهة قد جاءت و لم يتغير شيء.. جاءت اللحظة لتحرمني منها وتلقي بسواد دامس على حياتي ومستقبلي...

"أربع سنوات يا أحمد.. تعبث بي كل هذه السنين"..

لم أجد ردًّا يقال.. لا شيء يقال.

أسمع وقع أقدامها المنصرفة وصوت هديتي ترتطم بالأرض.

لا شيء يقال.. ظلمتني؟.. لا أعلم....

لكنني لم أجسر على الرد.

فقط عرفت لحظتها أن الحياة لن تعود أبدًا.. كما كانت.

اليوم الثامن

كان أول يوم يخبرني فيه الطبيب أن هناك بعض الاستجابة للعلاج.. لم أفرح كثيرًا.. لكنني على الأقل سمعت شيئًا جديدًا.. كلامًا مختلفًا.. قررت أخيرًا أن أهبط إلى حديقة المستشفى للمرة الأولى منذ جاء كياني إلى هذا المكان الكئيب.. لا أدري لماذا.. لكنني قررت أن أجهد نفسي يومًا بتفاصيل.. أتعكز على السلم كي أهبط الدور الأوحد.. لأجد نفسي في المكان...

الشمس تلمس خدي..والهواء يتسلل فوق تضاريس وجهي.. شعور غني بالأمل انتهى في لحظته.. وجدت طريقي لأجلس على إحدى الموائد البلاستيكية في مكان بعيد حيث لا يعرفني أحد...

لم أحب هذا كثيرًا لكنه حدث.. رأيت السيد الذي دفعته يجلس هناك.. التقت عينانا فلم أجسر على المواجهة.. هل أعتذر؟.. لكن وجهه ونظراته العاتبة جعلتني أنفر من ذلك.. لن أعتذر بلا شك.. لا أحب ان يتلاعب أحد بي حين يشعر بخطئي.. فقط جلست على مقعدي وتركت جسدي المكدود يتمدد ويستريح...

جاءتني رغبة عجيبة في أن أنام.. أن أموت والشمس الرقيقة تلامسني.. ونسمات الهواء تداعب جفوني المنتفخة كحبات

الزيتون.. رغبة عجيبة تملكتني فيها الموت يمتزج بالجنون.. بحب الحياة.

وجدت نفسي مجبرًا على أفكر كيف سيأتيني الموت طويلا..

فلم أدر متى ذاب مني عقلي.. ومتى غبت عن الوعي...

العام الثاني والعشرون

قالت (ندى):

"لهذا تكرهه؟"

"أنا لا أكرهه يا (ندى).. هو مجرد تنافس قديم منذ أيام الدراسة.. حملناه معًا حتى بعد التخرج".

قلتها في ضيق فقالت:

"وهل يصل الأمر إلى حد العراك أمام الناس.. لا يا أحمد هذا ليس تنافسًا على الإطلاق".

قلت متعصبًا:

"ربما.. من جانبه هو.. أنا لا أكره أحدًا وأنت تعلمين.. أنا لا أحقد على أحد.. هو يفعل.. هو الذي يُحنُّ لنجاحي رغم أن ذلك لا يؤثر عليه على الإطلاق".

"وأنت؟.. ألا تحقد عليه؟"

"ولماذا؟.. لقد حققت كل ما أتمناه حتى الآن.. ما الذي ينقصني؟.. ربما هذا الذي يثير جنونه.. أنه لا يقدر على مجاراتي.. هو لا يرضى أبدًا بنصيبه".

كان صوتي قد ارتفع حتى التفت لنا كل رواد الكافتيريا.. راحت (ندى) مضطربة تشير لي كي أهدأ.. تنحنحت في خجل في حين ابتسمت هي وقالت:

"دعك منه يا أحمد.. هناك ما هو أهم".

ثم أخرجت لي علبة مغلفة من حقيبتها وابتسمت قائلة:

"كل عام وأنت بخير".

عيد ميلادي!...

يا لها من رقيقة!

أشكرك يا (ندى).. أشكرك على كل شيء...

اليوم التاسع

في اليوم التالي لم أتمكن من تجاهله للأسف.. كنت قد قررت تكرار تجربة الجلوس في الحديقة هذه.. وربما النوم أيضًا.. لكن وجه الرجل نفسه صادفني وأنا أهبط درجات السلم.

كان لا بد أن أتكلم.. وأن أعتذر...

فاجأني أن الرجل قد تقبل اعتذاري بلا نقاش.. بل بدا كمن كان ينتظر هذا الاعتذار في شوق ليظهر من روحه مودة فائقة تجاهي.. وانتهى الموقف بأن جلسنا معًا على إحدى الطاولات داخل حديقة المستشفى.

"دعنا لا نتحدث عن المرض.. أنا (مولر).. أنا أقدم منك بكثير.. لقد تكيَّفت مع وضعي منذ زمن.. وصار الموضوع بالنسبة لي كحادث سيارة تنبَّأ لي به عراف حاذق.. لكنه لم يخبرني متى بالضبط يقع"...

"تخيَّل أنني طبيب.. بالفعل عزيزي؟"

"أحمد..".

"أحمد؟.. هذا اسم مسلم.. من أين أنت؟"

"مصر".

"جميل.. جميل.. المهم يا أحمد أنني طبيب.. لذا كان وقع الحقيقة شديد القسوة عليَّ تحديدًا.. أنا أعرف أكثر من غيري كيف تلعب هذه الأمراض".

"قلت لن نتكلم عن...".

"نعم.. نعم.. مقدمة لا بد منها فاعذرني".

ثم مال عليّ وهو يخرج علبة سجائر من جيبه:

"أتدخن؟"

"ألا يُمنع دخول هذه الأشياء هنا؟"

ضحك وقال:

"قلت لك إني قديم هنا"..

"عادة لا أدخن.. لكن السجائر دائمًا ما تجدي في مثل هذه المواقف".

ناولني إياها فتناولتها في لهفة.. شكرته فهز رأسه باسمًا..

أعتقد الآن أننا قد صرنا صديقين إلى الأبد..عن أبدنا القصير أتحدث بالطبع...

العام الحادي والعشرون

"هل تدخن يا أحمد؟"

قالها (حسين) متعجبًا فضحكت في مرارة.. طبعًا يتحدث عن أحمد الخلوق.. أحمد الخجول.. أحمد المجتهد.. إلخ...

"نعم".

"منذ متى؟"

ابتسمت في مرارة وقلت:

"منذ أن التحقت بالجيش.. منذ أن أدركت أنني فاقد (ندى) لا محالة بما أنا فيه من حال.. منذ أن صرت عاطلًا لا دخل لي يا أخ (حسين)".

"لكنها سنة واحدة يا (أحمد).. وسوف تعود لعملك كمعيد.. ما المشكلة؟"

نظرت إليه في غيظ وقلت:

"هل دخلت الجيش؟"

"لا".

"إذن اصمت...".

اليوم العاشر

"أتعرف يا أحمد؟"

يقولها (مولر) وهو جالس على مقعده.. الإرهاق يبدو عليه ممزوجًا بالانتشاء.. الانتشاء لأنه وجد طريقه للحياة من خلالي...

"لقد كنت أحمقًا.. تصور أنني - قبل أن أعرف شيئًا عن مرضي بقرابة أسبوع - كنت أمر بلحظة من أشد لحظات حياتي ثورة.. تخيل لماذا؟"

سألته طبعًا فأجابني:

"لأن الجامعة لم ترشحني للحصول على جائزة نوبل في هذا التوقيت".

تراجعت فضحك ضحكة قصيرة لدهشتي.. أردف:

"نعم يا بني.. إن شعري الأبيض هذا لم يضع في الخمر والنساء.. جزء صغير منه فقط.. لكن السواد الأعظم ضاع في العلم.. في أبحاث مذهلة.. في تقنيات وكتب عديدة تحمل اسمي.. الكل هنا يعرفني يا عزيزي ويعرف مرتبتي العلمية".

نظرت إليه نظرة التقطها على الفور:

"أحمق.. نعم.. أحمق.. كان كل شيء بيدي.. كنت على الأقل أملك الغد.. أملك الأمل.. اليوم لا ترشيح.. غدًا ترشيح واعد.. وربما جائزة أيضًا".

لم أعرف ما أقول.. بينما ردد هو مجددًا:

"رجل عجوز أحمق.. نعم يا بني.. أنا هو ذلك الأحمق".

ثم تنهد في شقاء.. سألني بعد برهة:

"متزوج؟"

"لا".

"أحسنت.. أحسنت".

"ليس إلى هذا الحد.. هي مسألة قدر لا أكثر".

"بل هي مشيئة الله.. أنت - ربما - شخص طاهر يا أحمد.. لذلك لم يعطك الله منحته.. لأن أمثالنا يموتون مائة مرة في اليوم قبل أن يأتيهم الموت ذاته عذابًا على ما تركوه في الدنيا".

"لستَ متزوجًا إذن؟"

"من قال هذا؟!.. من قال لك إني شخص طاهر؟!"

وعاد يضحك في هستيرية..

"لا.. لا تنظر لي هكذا.. نعم أنا أحمق كبير.. أملك كل شيء.. لكنني أريد نوبل.. نوبل ولا شيء غير نوبل.. تبًّا لنوبل.. ها أنا ذا قادم إليه شخصيًّا ليسلمني جائزتي في الجحيم".

" (مولر).. كنت أظنك أكثر صلابة.. اهدأ".

"أنا كذلك يا فتى.. أنا كذلك".

قالها ثم مال عليَّ وقال:

"وماذا عنك؟"

كافتيريا الكلية شديدة الازدحام.. أتناول مقعدًا وأجلس وبجواري اثنان من أصدقائي.. الجو شديد الحرارة ها هنا..

"ها هو جدول الامتحانات لمن يريد أن يصور نسخة".

"دائمًا جاهز يا أحمد.. هي السنة الأخيرة".

"نعم يا أحمد.. إن فرصتك كبيرة في التعيين بالجامعة".

ابتسمت ولم أعقّب.. حلم جميل طالما راودني.. لكنني في مثل هذه المواقف لا أحب أن أكثر من الأحلام الوردية الساطعة.. من يدري...

كاد أحد زملائي يتكلم لكنني نهضت فجأة من جواره وأشرت له أن ينتظر.. كاد يتكلم لكنني تركتهما وانطلقت.

هز زميلي كتفه في عجب.. فابتسم الآخر في خبث:

"إنها (ندى).. يبدو أن المجنون سيتحدث لها الآن".

اليوم الحادي عشر

"كانت (لويز) شديدة القسوة".

قالها (مولر) في حسرة.. هذه جلسة جديدة بيننا.. لكنها كانت في غرفته هذه المرة لأنه لم يقوَ على الخروج اليوم.. قال لي:

"لم تفهم لماذا طلقت والدها.. شابة حمقاء لا تقبل النظر إلى الأمور من منظور يخالف منظورها.. لا تفهم معنى أن تكون الحياة جحيمًا دائمًا بالنسبة لك.. كانت أمها شيطانًا يرتع في بيتي.. لكن (لويز) كانت تحبها".

"ثم"...

"هي تجربة قاسية يا (أحمد).. أن تغلق ابنتك الباب في وجهك.. أن تنفعل عليك وسط الشارع لمجرد أنك تحاول رؤيتها أو التحدث لها".

ثم تنهد متألمًا ونفث دخان سيجارته.. كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالشفقة تجاه شخص.. كان (مولر).. كان يتظاهر بالقوة بينما كلماته تقطر ضعفًا وألمًا.. ربتُّ على كتفه.. ورأيت فيه صورة كل رجل كبير حبيب من أهلي.. كانوا جميعًا يرتسمون على وجهه الحزين حين يتكلم...

"لا يا (أحمد).. لا تقلق.. فأنا لا أبكي مثلك.. قلت لك إن زوجتي كانت شيطانًا ولا يعاشر الشياطين سوى الأبالسة".

ابتسمت رغمًا عني في حين همس هو:

"أأخبرك بسر؟"..

ملت عليه بحركة تمثيلية وقلت:

"سرك في أمان".

"لو كانت الأمور على ما يرام لزوَّجتُكَ (لويز).. هي فاتنة صدقني.. وأنت شاب طيب يا (أحمد).. حقًا يا بني.. ليت هذا يصير ممكنًا في يوم من الأيام".

نظرت إليه بحب وامتنان.. وعاودتني رغبة في البكاء من جديد.. لم أكن أملك للرجل شيئًا يقال غير أن أمسكت بكفه وربتُّ عليها.. ومنحته ابتسامة تمنيت أن تنقل إليه ما أكنه لهذا العزيز.

"قلت لك اركب معنا".

قلتها لـــ(حسين) مشجعًا لكنه هز رأسه ضاحكًا.. ومازحًا قال:

"إلى أين؟.. إلى (المنيا)؟.. هل تمزح؟"

"خيَّبك الله يا (حسين).. البنات فعلنها".

"هن حمقاوات بلا شك".

نزلت إليه ووضعت يدى على كتفه قائلًا:

"هذا عمل خيري أيها اللئيم.. لا تنس أننا نحمل سلعًا مبنية على التبرعات.. يجب أن نوزعها بأنفسها.. هكذا تقتضي الأمانة".

"أحمدُ الله إذن أن هناك من الحمقى من يتحمل عبء هذه الأمانة التي أدفعها من جيبي"..

أحمق (حسين) كعادتي به.. لكنه شديد الطيبة.. تعاهدنا في يوم من الأيام على أن نفتح مكتبًا مشتركًا للهندسة.. تعاهدنا على العمل الخيري.. وتعاهدنا على أشياء كثيرة...

كانوا يقولون: أحلام.. حماس شباب.. لكنني أعرف من أنا.. وأعرف أن عقلي ملك قلبي لن يتغير.. وأنني سوف أحقق هذه الأحلام يومًا ما..

سرنا على الطريق.. وانصرف صديقي راضيًا..

اليوم الثاني عشر

على طريقة الأفلام الكلاسيكية.. دبت بداخلي رغبة الحياة من جديد.. منذ أن استيقظت وأنا أبحث عن طريقة للعثور على (لويز) هذا الرجل.. رغبة محمومة كي أقدِّم لهذا العجوز الطيب شيئًا كاد أن ينساه اسمه الفرحة.. شيء لن تمنحه إياه سيجارة أو مشروب.. شيء ليس من السهل أن تخلقه الآن لأمثالنا..

قضيت ليلتي السابقة أفكر.. واليوم أسعى للوصول إلى أي شيء يخصها.. الهاتف أو العنوان.. ودون أن أُشعر صديقي الكهل بما أنتويه.. هي لا تعرف شيئًا عن مكانه الآن.. ربما...

كان يومًا طويلًا بالنسبة لي.. للأسف لم أوفَّق.. وأصابني الإحباط حتى خنق أنفاسي...

"(أحمد).. ألن ترافقني إلى الحديقة؟"

كذا قال (مولر) واقفًا على باب غرفتي وعلى وجهه ابتسامة واسعة.

العام الثامن عشر

شعور مرهق ذلك الذي انتابني بعد يوم شاق ومحاضرات لا تنتهي.. بيد أني لم أكن أستطيع أن أتعدّى حدود عاداتي.. كان اليوم عيد ميلادي.. وقد اعتدت في هذا اليوم أن أتم مشواري هذا قبل أي احتفال.. فتحت حقيبتي أطمئن على المبلغ.. ثم سرت إلى الضفة الأخرى من الطريق حيث يقف ذلك المبنى المتهالك العجوز...

عمل خيري.. لم أكن أشتري لنفسي المخدرات من هذا المكان قطعًا...

اليوم الثالث عشر

عدت لمواصلة المحاولات اليائسة كي أعرف بعض المعلومات عن الفتاة.. هرفت بعد محاولة أخيرة أن أتوصل إلى ما يمكن أن يكون هاتفها بالعمل.. قررت أن أخاطبها في صباح الغد لكنني لم أتوقّع قطعًا ما حدث...

العام السابع عشر

شعور لم ينتابني منذ سنوات.. أن أعرف بنجاحي في اجتياز الجولة الأولى من دراسة الهندسة قبل يوم واحد من عيد ميلادي.. لم أصدق و لم يصدق أبي أن هذا ممكن.. أن أكون من أوائل دفعتي في أول عام لي بالكلية.. لم أتمكّن من احتواء تلك الفرحة حتى صارت أقرب إلى الهستيرية.. قررت أن أمسك بمكافأة أبي وأهلي واقتسمها.. لأحمل نصف هذا المبلغ إلى أي شخص يصادفني.. كانت دار الأيتام المتهالكة هي الأقرب إلى داري.. فقررت في لحظة فرحتي أن أتذكر هؤلاء الناس بمبلغ كل عيد ميلاد.

شاعرًا بالرضا عن نفسي تركت لهم ذلك المبلغ الصغير وعدت عدوًا إلى منزلي.. كنت واثقًا أن هناك الكثير من الاحتفال في انتظاري.. وكنت أريد أن ألمسه لحظة بلحظة.

"أين كنت يا (أحمد).. لقد اتصل عشرة من زملائك حتى الآن.. أنت عريس اليوم يا بني".

اليوم الرابع عشر

"لا تفعل يا عزيزي.. لا تتصل بـــ(لويز)".

حدَّقت في وجه (مولر) ولم أستوعب ما قال..كيف عرف؟!

أردف (مولر):

"لا شيء يخفى علي ها هنا يا (أحمد).. لقد عرفت بمحاولاتك الدءوب كي تحصل على أية بيانات عنها".

صمتُّ ولم أرد.. كنا في جلسة أخرى من جلسات الحديقة.. قال لي:

"عزيزي (أحمد).. لا أريد من ابنتي إلا السعادة.. سعادتها وسعادتي برؤيتها.. هو شيء لا تحصل عليه بالشفقة والاستجداء.. ثم أنني اكره لـــ(لويز) أن تتعذب كثيرًا في مرضى.. عذاب واحد ومرة واحدة في لحظة الموت تكفيها يا (أحمد).. هذه المرة على الأقل لا أستطيع أن أمنعها ولا أملك من أمرها شيئًا".

نظرت إليه ولم أفهمه.. شعرت أن في كلامه نظرة درامية حالمة تفتقر إلى الواقعية كافتقار الماء للصلابة.. لكنني في النهاية وجدت من الأفضل أن أتركه لاختياره.

العام السادس عشر

لم أكن أعرف الكثير عن القهر في سني الصغير هذا.. لكن هذا كان هو القهر بلا شك.. التعنُّت العجيب على دخول الهندسة.. كانت كلية الحاسبات اختراع العصر ومطمح الشباب الصغير المتحمس من أمثالي.. فقط أبي يراها كلية مجهولة المستقبل.. لم يكن منطقه يقترب من منطقي من قريب أو بعيد.. ولم يكن حتى يستند إلى أي شيء أفهمه بخلاف مبدأ ما تعرفه وما لا تعرفه.

لكن أبي لم يكن من هؤلاء الذين يعرفون كيف يقهرون أبناءهم...

كان شديد الطيبة وكان هذا هو القهر الحقيقي في نظري.. نظرته المتعشمة وحلم عمره الأثير يقهر الرغبة في أعماقي.. الشعور أنني أملك أحلام هذا الرجل يجعلني أعجز عن الرفض.. كان قهر حبي له أكبر من قهر كلماته ورأيه.

وجدت نفسي أنصاع.. قلت له:

"ستتحمل كافة الخسائر إذا شعرت أنا بالندم يا أبي".

ابتسم في ارتياح ولم يعقب...

اليوم الخامس عشر

ساءت صحة (مولر) كثيرًا...

هكذا عرفت.. فجأة حين لم أعثر عليه في الحديقة.. سألت عنه في غرفته فأخبروني أنه قد انتقل للعناية إثر تدهور مباغت في صحته.. عدت إلى غرفتي وأنا أرتعش.. تذكّرت والدي وأنا صغير حين أصابته - لأول مرة - أزمة صحية مفاجئة.. كنت في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر لا أذكر.. لكنني أذكر جيدًا أنه كان - للأسف - يوم عيد ميلادي.. أتذكر رجفتي ودموعي وأنا على باب العناية المركزية.. تذكرت هذه اللحظات العصيبة الآن.. تذكرتها وجسدي يرتجف من جديد.. وقلبي ينسحب إلى أعماقي.

دعوت له في سري...

عادت ذكرى أهلي إلى عقلي مجددًا...

وازداد قلبي انسحابًا وتوجُّعًا.

العام الخامس عشر

وقفت على باب العناية ذاهلًا.. كنت أبكي وأرتجف كالمحموم.. موقف عجيب قاسٍ لم أشهده من قبل.. أهلي من حولي.. والأثواب البيضاء تجري كالدوامة في كل مكان.. رائحة المطهرات تملأ أنفي وتكتم أنفاسي.. لا أشعر بشيء سوى يد عمي العفية تداعب رأسي.. أشعر فيها بالتوتر والرهبة أكثر من شعوري بالأمان.

فقط قال لي:

"سيكون بخير يا بني.. كن رجلًا".

اليوم السادس عشر

"الآن حالته مستقرة".

هكذا أخبرني الطبيب ثم انصرف.. لا كلام.. ولا إجهاد.. هكذا أمرني.. من ثمّ انصرفت قلقًا إلى غرفتي لا أعرف إن كان هذا يكفي لكي اطمئن؟!

في ذلك اليوم قررت أن أنفّذ ما كنت أنتويه.. ثروتي الصغيرة.. قررت أن أتبرَّع بها جميعًا.. من أجلي ومن أجل (مولر).. لم تكن بطولة مني.. فكل الأموات يفعلون كذلك.. لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة وانحرفت عن قراري زاوية محدودة.. قررت أن أحوِّل المبلغ لأهلي في مصر تاركًا لهم حسن التصرف فيه.. لا أعلم.. ربما كانوا في شدة الحاجة له الآن.. لو لم يكونوا كذلك فأنا أعلم مسبقًا أنهم سيتبرعون به كاملًا.. خاصة بعد وفاتي.

استسلمت لقلبي وقررت أن أنفذ هذا الآن.. وفي داخلي شعور دافئ بالراحة.

انتابني شعور مبكر بالرجولة وأنا أقول لأبي: لا.. كذلك هو شعر بذلك.. تعجَّب له.. وأخيرا بدأ يفهم أنني لم أعد أرتدي (الشورت) و(الصندل).. قال لي:

"يا بني لماذا؟.. هذا هو المبلغ.. وأنا قد وعدتك بشراء جهاز لك.. أنت طلبت هذا".

"يا أبي أنا لم أعد صغيرًا.. وأفهم جيدًا ما يدور من حولي.. ليس هذا هو الوقت المناسب للشراء والترفيه.. أعانك الله يا أبي".

تأثر العزيز لكلامي.. نظر لي وفي عينيه امتنان لرجولتي المبكرة.. لكنه كعادته انقلب واستدرك وقد غلبه عناده وملكته عزة نفسه:

"دعك من الكلام الفارغ هذا.. امسك يا ولد.. امسك".

اليوم السابع عشر

في هذا اليوم تحدثت إلى (مولر)...

لم أكن أعرف إذا كان قد تحسن أم لا لأنه كان بالفعل في حالة سيئة.. زرته في العناية حين سمح الطبيب قليل الكلام بهذا.

قال لي (مولر) وهو يتألم:

"(أحمد).. كلم (لويز)".

"لكنك...".

"أحمق.. مكابر.. وغد غبي يتظاهر بأنه بطل قصة.. دعك مما قلت وكلمها.. قل لها أن أبوكِ يُحتضر.. وأن السعادة بالنسبة له هي (لويز).. لحظة سعادة واحدة ثم تنصرف.. فقط لحظة".

ثم تناول ورقة وقلم ليسجل بها شيئًا ما...

"دعك من محاولاتك الفاشلة.. ها هو ذا رقمها.. أرجوك افعل ذلك الآن".

رأيت وجه الطبيب من خلف الزجاج وكأنه يهددني.. كان يستحثني على ترك الرجل ليستريح.. وعدته وانصرفت.. تناولت الرقم في يدي وشعور عجيب بالراحة ينتابني إزاء طلبه هذا.

وشعور بالندم أني لم أفعلها من قبل.. غبي صدقت ما قال.

العام الثالث عشر

لم أكن أفهم لماذا لم يهتم أحد بعيد ميلادي هذا العام...

تظاهرت بالضيق لعل أحدهم يلاحظ.. لكنهم لم يلاحظوا..

تحوّلت إلى الأسلوب المباشر.. فشعرت بأن هناك أمر غير مألوف.

لم يتكلم أبي لكن أمي الطيبة فعلت.. سرًّا.. وأخبرتني..

انتابني شعور بالانقباض.. ثم الغضب.. وواجهت أبي...

لم يشأ أن يخبرني بمرض جدي.. شعرت بأنه لا يعتبرني رجلًا.. الأدهى أنه كان يريد الاحتفال بعيد ميلادي.. وهذا ما جعله يضحك كثيرًا من بين أحزانه حين قالت له:

"هو أنا معنديش دم؟"

اليوم الثامن عشر

"مولر؟.. لا لم يعد إلى غرفته.. لقد توفي اليوم صباحًا".

انتفضت من هول الكلمة.. شعرت بالدوار يتلاعب برأسي.. يتصاعد من حولي لأجد نفسي فجأة وقد فقدت توازني.. استند على الحائط بينما تنصرف الممرضة لتكمل ما تفعله.. شعرت بالحمض يصعد إلى فمي.. جريت إلى الحمام وأفرغت ما أفرغه.

بدأ عقلي يدرك ما سمعت...

(مولر).. مات...

نَدَّت مني صرخة ألم هزيلة وأنا أستند إلى الحوض.. واندفعت في بكاء هستيري...

"سرطان.. سرطان.. سرطان"...

شعرت به في كل مكان.. شعرت بمرضي.. شعرت بحياتي التي تنتهي.. كان (مولر) يعرف كيف يتغاضى عن كل شيء.. كيف يهرب من الحقيقة.. وكنت أنا أختبئ في حرملة سكينته فأستكين.. الآن تركني لأفكر بعقلي لا بعقله.. وأعود في مكاني لأنتظر الموت من جديد.

وجدت نفسي وقد أسقطني الدوار على أرضية الحمام.. لا أقوى على النهوض.. فقط أنتحب.. انتابني ساعتها هاجس خانق.. هل رأى ابنته؟.. هل زارته؟.. هل منحته الفرحة التي أراد؟.. لا أعرف.. ولن أعرف أبدًا...

ظللت أنتحب طويلًا والهاجس يدور برأسي لا يتركها.

لن أعرف أبدًا...

العام الثاني عشر

كنت في الثانية عشر حين ماتت جدتي...

كان ذلك بعد عيد ميلادي بأسبوع...

لم أبكِ كثيرًا لأنني لم أكن أعرف هذه المشاعر.. ربما كنت أبكي لبكاء أهلي.. ولذلك الجو الجنائزي الذي يسري في المكان.. تعلمت ساعتها أن للموت رهبة.. عرفت كيف يبدو.. وظل الانقباض في قلبي يعصرني من هذا المعنى المخيف الذي لم أكن أعرفه.

كنت أحب جدتي كثيرًا.. لكنني لم أكن أفهم في هذا السن.

كان أبي يعرف كيف يبعدني والصغار جميعًا عن أية مراسم قاسية علينا كصراخ النساء والدفن وما ماثل.. كان ذكيًّا حين رحمنا من قسوة هذه اللحظة.

كنت أحبها كثيرًا...

اليوم التاسع عشر

عدت إلى جلستي الأولى.. في غرفتي.. أستند إلى ظهر الفراش.. وأضم ساقيَّ الهزيلتين إليَّ.. تقبَّلت الحقيقة.. لكنني لم أستطع أن أتأقلم ثانية.. اكتفيت بالصمت والركون إلى غرفتي...

قالت لي الممرضة:

"يبدو أنك لست الوحيد الذي حزن لفقده.. ابنته جاءت اليوم صباحًا لزيارته.. لم تكن تعرف أنه مات".

عضضت على شفتي و لم أرد.. فقط ازداد السواد بداخلي كقلم حبر وقد انفجر على سطح روحي الهشة البيضاء.. تركتها تنصرف بلا جواب ثم عضضت على شفتي أكثر كي أمنع المزيد من الدموع من الانفلات.. تركت روحي تذوب إلى ما لا نهاية.. شعرت بأن قلبي لم يعد يتحمل المزيد.. شعرت بأن الموت الآن أقرب ما يكون إلى روحي.. من يعلم؟.. من يعلم؟!

تذكرت أهلي مرة أخرى وانتابني شوق جارف إليهم.. أبي الحكيم وأمي الطيبة.. كنت هشًّا.. و لم يكن هناك من هو أقوى من هذا الشعور إلا احتواء بيتي.. أسرتي الدافئة.

شعرت برغبة مجنونة أن أهرب إليهم الآن.. أن أجري جريًا إلى أرضهم.. شعور لم أقوَ على تحقيقه.. يدي المرتعشة.. صوتي المبحوح.. لم يكن لدي ما يستحق أن أمنحه لأهلي بعد كل هذه المدة الطويلة.

تركت جسدي ينساب في فراشي.. أخذت نفسًا عميقًا وتركت الرجفة حتى غبتُ عن الوعي.

العام الحادي عشر

لم أكن أتصور أن يتصرف أبي بهذه الصورة...

لم أستطع أن أقول له ذلك.. لكنني - كالغبي - تركت محصلة درجاتي على المكتب.. رآها.. كنت أشعر بالخزي منه بأكثر مما أخافه.. كنت أحب نظرة الفخر والسعادة في عينيه.

رآها.. ورآني وابتسم.. قال كلامًا كثيرًا.. لكنه لم يؤنبني.. كان مدحه أكثر من ذمه.. فقط قال لي قبل أن ينصرف:

"من حق المجتهد فرصة أخرى.. وأخرى.. الفاشل فقط هو الذي لا يعطى الفرصة.. لأنه من الأصل لا يطلبها".

ذكرني بعيد ميلادي فابتسمت.. هو لا ينسى أبدًا.. ألقيت نفسي في حضنه وشعرت وكأن درجاتي جميعًا قد تعدَّلت.

يا لسحر هذا الرجل!

اليوم العشرون

أغلقت هاتفي وتركت نفسي أنساب على الفراش.. غارقًا في الإنهاك والعرق.. الدموع تسيل من عيناي لتخرج ما في قلبي من آلام تلك اللحظات القاسية.. مجهود مؤلم ذلك الذي تكبده قلبي وعقلي كي يبدو لهما - أبي وأمي - كل شيء طبيعيًّا.. كي أتحمَّل عتابهما الحاني عليَّ.. كم كان من الصعب أن أفكر أنني قد حرمت نفسي منهما طواعية كل هذا الوقت.. كم شعرت بالخزي لدموع فراق رفيقي العجوز.. تلك التي بخلت بها على فراق أهلي.. الآن أدركت كم أحبهما.. أدركت أني لا أريد الآن أكثر من رؤيتي لهما.. أدركت كذلك أني قد لا أراهما مجددًا بعد كل هذا.

نحيب عميق.. لكن لا أحد هنا يهتم.

هكذا أراد أبي أن يوجهني.. بطريقته...

تركني وأمي في نقاشنا العنيف حتى انتهى.. تركنا نقول ما نقول ثم دعاني إلى غرفته..

قال لي في صوت عميق:

"من حقك أن تدعو زملاءك لعيد ميلادك.. ومن حق أمك أن ترفض.. من حقها أن تقول حجتها.. ومن حقك ألا تقتنع وأن تجادل ما دمت لم تتجاوز.. في النهاية من الأعلى في نظرك.. أمك أم زملاؤك؟"

"لكن يا...".

"من؟"

قالها وكان حازمًا.. حانيًا.. لهجته جعلتني أنصاع.. أخرج عن غضبي.. همست:

"أمي بالطبع".

"إذن؟"

هززت رأسي وأجبت:

"سأعتذر لها.. الآن".

ربتَ على كتفي وابتسم.. تلك الابتسامة التي تحقق كل طموحي في الحياة.. تلك الابتسامة جعلتني أجري جريًا نحو أمي...

فقط أوقفني أبي وهمس لي وهو يغمز بعينه:

"أتوقع بعد هذا أن تجد زملاءك في عيد ميلادك الليلة".

ابتسمت لقوله وتحمست.. أثق في أبي وأعرف أن ما قاله سوف يحدث قطعًا.

أبي يعرف كل شيء...

اليوم الواحد والعشرون

عرفت أن شيئًا ما ليس على ما يرام...

أشعر اليوم بتدهور.. مزيد من التدهور.. شعرت به.. رأيته في عيني طبيبي وهو يقرأ التحاليل ويهز رأسه كأنه يقول: "ميت".. لم يتكلم كثيرًا.. ولم أكن أريد أن أسمعه.. الضوء الباقي من معركة الشمس في نهار هذا اليوم لم تبخل به عليَّ.. أقف في النافذة لألمس ما بقي لي من ضوئها.. الأصوات تخفت.. الحركة تهدأ.. الحياة تذبل.. تنسحب الأضواء من مسرح حياتي لتترك ظلمتي تسبح وتلطخ السماء.. الظلمة.. البرد.. والقسوة...

تذكَّرت مصحفي وسجادة الصلاة بغتة.. أشياء لم أخرجها من حقيبتي منذ جئت.. شعرت بالخوف من تقصيري.. شعرت بالحاجة إلى فرجة من النور تريح قلبي الذي يئن تحت أنقاض حياتي وأحزاني..

تماسكت وسرت نحو حقيبتي...

أمسكت مصحفي واحتضنته في قوة...

العام التاسع

كانت أول مرة أسير فيها إلى جوار أبي ذاهبين إلى المسجد.. يدي في يده.. بجلباب أبيض جديد وابتسامة واسعة.. أتأمل الطريق.. أشعر بالفخر.. كذلك فعل أبي..

خطوة بخطوة وأنا أستحثه:

"هيا يا أبي.. ستفوتنا الصلاة".

ينظر.. يبتسم.. ولا يرد...

لكنني شاهدت السعادة في عينيه الطيبتين...

اليوم الثاني والعشرون

كان أطول أيامي منذ وُجِدتُ ها هنا.. أسمع دقات قلبي تتردد بين أركان الغرفة المظلمة.. أشعر بروحي تتسلل من بين أطرافي.. العرق والإنهاك...

الشعور بالوحدة.. أين الناس؟.. أين كل الناس؟!

العام الثامن

في ركن المنزل أجلس وأرتكن إلى الحائط.. أبكي في قهر وأنظر هنا وهناك ربما يلاحظني أحد.

"ما الأمر يا (حمادة)؟"

أنظر إلى الأعلى ليتناولني وجه جدتي بابتسامة حانية.. تنحني لتدنوا مني فأهز أكتافي ولا أرد...

"(حمادة).. هل أنت غاضب لسفر والديك؟"

لم أرد..

" (حمادة).. تعلم أنهما يحبانك بشدة.. لكنها ظروف مرض جدك كما تعلم".

قلت في عناد:

"لكنهما لن يحضرا عيد ميلادي".

"أنت الآن رجل ويجب أن تقدِّر.. وتتحمل".

هززت كتفي مرة أخرى غاضبًا.. فضَحِكَتْ...

"لا يا جدتي.. لا أعذار".

لا أعذار...

اليوم الثالث والعشرون

المزيد من الظلام.. الثقل يزيد على قلبي المكدود.. صوت دقات قلبي كما هو.. الخوف.. الخوف..

"سرطان.. سرطان"..

ثم احترق الصمت.. صوت الطبول على بابي.. تدق.. تدق.. النور يتسلل من فرجة الباب ليحرق عيني.. لم أقوَ على الكلام أو الحركة.. وبقيت في سلبية أنتظر...

"زيارة يا سيد (أحمد)".

ثم سطع الضوء في الغرفة كلها.. رفعت يدي أُغلق منفذ النور إلى عيناي الغارقتين في الهالات السوداء...

لم أصدِّق...

أيمكن لي أن أنفعل؟.. أن أرتعش.. أن تنبض في جسدي الميت نبضة أخيرة تقول إني حي.. أيمكن لي أن أشعر بما شعرت به.. ذلك الوجه الملائكي الرقيق.. تلك الابتسامة القادمة من أعماق طفولتها.. النظرة المحسوسة على وجنتي والكلمات التي تخرج فلا تعرف من أين تأتيك...

"آسفة على الإزعاج"..

ثم تأملتني فتعجبت ثانية واحدة.. ثم أدركَتْ أن هذا لا يليق.. قالت:

"أنا.. أنا لـــ" ...

"(لويز)"..

قلتها باسمًا في ضعف وأضفت قبل أن تسأل:

"تمنيتُ أن تكوني أنت لا أكثر".

قالت مرتبكة:

"جئت أعتذر.. لقد فقدت اتزاني بعد معرفتي بما حل بوالدي.. لذا نسيت أن أشكرك على موقفك النبيل".

خفق قلبي أكثر.. قلت:

"كنا أصدقاء.. وكان يحبك".

عضت شفتيها في تأثر ودمعت عيناها فشعرتُ بالندم.. قالت:

"لم أتخيَّل أنك صغير السن هكذا.. أتمنى لك الشفاء".

هززت رأسي لا أعرف ما أقول.. همَّت بالانصراف شاكرة لتأخذ ما تبقى من حطامي معها.. لكنها قالت متلاعبة بتلابيب إنسانيتي المبعثرة قبل أن تنصرف:

"اسمح لي بزيارتك ثانية.. لعلي أقدم لك ما لم أستطع أن أقدمه لوالدي الراحل".

هززت رأسي ممتنًّا.. ولكني لم أقوَ على الكلام.. ابتسمت..
هزت رأسها ثم انصرفت..

يا لهذه اللحظة!!

الآن؟.. وفي هذا الوقت تحديدًا؟!

لم أعد أفهمك أيتها الحياة..

العام السابع

"ماما.. متى سأتزوج؟"

نظرت لي أمي مفزوعة.. ثم غلبتها ابتسامة.. رفعتني لأجلس بجوارها وقالت:

"لماذا تسأل؟"

هززت كتفي.. طفل بريء..

"سؤال عادي".

ضحكت وقالت:

"ما زلت صغيرًا يا (حمادة).. بعد عشرين عامًا على الأقل".

نظرت لها في هلع.. فضحكت أكثر...

"أيمكن أن تقل هذه الفترة قليلًا يا أمي؟"

مالت عليّ وقالت:

"يفضَّل أن نسأل (لها) نفسها"..

تراجعت في فزع فضمتني إليها وقالت باسمة:

"ماما تعرف كل شيء.. ماما تفهمك يا (حمادة)".

لم يكن هذا جوابًا لسؤالي لكني ابتلعت خجلي و لم أتكلم ثانية في الموضوع...

اليوم الرابع والعشرون

لم تأت ثانية.. الشبح النائم.. بهالاته السوداء.. وجسده البالي.. ورائحة القيء من حوله.. من يرغب في زيارة هذا الكيان المقزز؟!

كانت لحظة.. الأمر كله كان مجرد لحظة.. لحظة إنسانية.. (حلاوة الروح) كما يسمونها.

لم أهتم.. قررت أن أنسى..

أمسكت مصحفي وشرعت أقرأ...

العام السادس

"أنا عيد ميلادي اليوم"..

أخيرًا قلتها.. ابتسمتُ في وجه (لها) جارتي فنظرت لي في دهشة.. المدرِّسة من بعيد تلمحني وتنظر لي في حدَّة.. كم أكرهها!!

انتظرت حتى ألقت المدرسة نظراتها بعيدًا ثم قلت لها:

"أنا عيد ميلادي اليوم.. في بيتنا.. والدتي تدعوكِ للحضور".

مطَّت شفتيها الصغيرتين.. لا مبالاة ودلال..

أنتظر في لهفة...

قالت:

"لا.. أعتقد صعب".

"لماذا؟"

قلت في غيظ فردَّت:

"هكذا".

شعرت لحظتها أني أريد أن أضربها.. رفعت صوتي لأتكلم...

"ولد يا (أحمد).. لا تتكلم مع أحد".

ابتلعت لساني في حين نظرت (لها) في كراستها...

كم أكرهها!!

اليوم الخامس والعشرون

الليل الطويل.. أقرأ القرآن بصوت مرتفع لأنشر الدفء في أوصالي.. أرتجف.. من المرض.. من الخوف.. من الظلام..

لا أدري.. لا أدري...

العام الخامس

"لا تطفئ النور".

قلتها لابن خالتي.. فعند أكثر...

قفزتُ وأضأتُ النور عنوة...

"تخاف من الظلام؟"

قالها متشفيًا وهو يدفعني ليعيد السيطرة على مفاتيح خوفي.. شعرت بجرح كرامتي.. كما تألمت لأنه عرف ذلك.. عرفه وسيستغله.

أطفأ النور ثانية وهو يضحك.. لكن ضحكته لم تستمر طويلًا.. لأنه صرخ مرتاعًا حتى كادت الدنيا تضيء بصرخته...

"يا عضّاااااض"...

اليوم السادس والعشرون

لكنني أريد ان أراها ثانية...

هكذا اعترفتُ لنفسي.. ثم سألتُها.. "لماذا تريد ذلك؟"

هذا هذيان.. هذيان الضياع والموت...

نوبة من السعال الفادح.. أندفع لأفرغ ما في جوفي في الحوض.. انزلقت.. سقطت على الأرض...

تذكرت...

"لا توجد جثث تحب"..

لم أدرِ وجسدي المفكك يفترش الأرض.. لماذا سالت تلك القطرات الدافئة على خديَّ؟

لماذا كانت دموعي؟

"لا توجد جثث تحب"..

لماذا كانت دموعي؟

العام الرابع

أبكي.. أبكي.. وأبكي كالمجنون...

أمي تحاول أن تتملص مني دون جدوى.. لا يا ماما.. لن تتركيني وحدي...

تحملني.. تضحك في وجهي.. تقول:

"سأعود مرة أخرى حين تنتهي المدرسة".

أصرخ...

"لا أحب المدرسة.. خذيني معك.. لا أحب هذا المكان".

"لقد كبرت يا (حمادة).. يجب أن تفرح لأنك صرت تذهب إلى المدرسة".

ثم ناولتني من حقيبتها قطعة من الحلوى.. لكني رفضت...

"لا ماما.. لا أريدها.. أريد أن أذهب".

كانت أمي تعرف كيف تقنعني.. نظرت لي تلك النظر المفزعة.. وبدأ صوتها يعلو..

كان يجب أن أستجيب.. وعرفت أن في اليوم تجربة مريرة...

اليوم السابع والعشرون

فرغت من الصلاة ثم شعرت بدوار عنيف.. استندت إلى الحائط...

أتنفس بصعوبة.. أشعر بالعرق يغرق جبهتي...

أعجز عن الكلام...

أشعر أن كل شيء من حولي قد أوشك على الانتهاء...

رائحة المطهرات في أنفي...

أشعر بالخوف.. الخوف...

العام الثالث

لا أحب صراخ بابا.. لا أحب صراخ ماما...

كلاهما يصرخ.. يصرخ في وجهي أو يصرخ في وجه الآخر..

ربما قليلًا ما يحدث.. لكني أخاف.. أخاف من هذا الصراخ...

أسمعه فأتوارى بعيدًا..

لماذا لا يضحكون؟.. هذا يسعدهم ويسعدني أيضًا..

اليوم الثامن والعشرون

أشعر بمزيد من التدهور.. لا أفهم.. هل هو المرض أم هي روحي التي انفطرت بالأحزان؟.. هل هو حاضري أم الماضي أم ذلك المستقبل الذي عرفت أنه لن يكون.. لم أعد أتحمل النور.. الكلام.. الهمس.. الحركة.. فقط الظلام وصوت أنفاسي..

فقط الانتظار..

العام الثاني

"بابا.. يعني إيه مات يا بابا؟"

اليوم التاسع والعشرون

بيد مرتعشة أستند إلى طرف الفراش.. أنفاسي تهرب مني.. يدي الأخرى تستند إلى الطاولة فتسقط بما عليها من أدوية.. أتعثر.. الثقل القاتل على قلبي يزيد.. أهوي إلى الأرض.. أحاول أن أصل إلى الباب.. آخر لمحة من التمسك بالحياة...

لا يخرج الصوت من بين أضلاعي..

فرجة الباب تنفتح وقد شارفتُ على أن أفقد الوعي...

لم أقدر على الرؤية.. كان كل شيء مشوشًا أمامي.. فقط أسمع صوت الأقدام المتعجلة من حولي.. أسمع صوت الممرضة.. الطبيب.. أشعر بالأيدي تمسك بي...

أشعر بالهوة العميقة تسحبني إليها.. أشعر بالأيادي تقبض عليَّ في قسوة.

ثم تبدو الأشياء مختلفة...

ويتلاشى شعوري بالموجود في كل لحظة...

العام الأول

تنادي أمي أبي:

"انظر"..

يأتي أبي على عجل:

"ماذا؟"

تشير أمي إلى صغيرها.. يراه الأب يجلس في هدوء وسكينة..فاغرًا فاه الصغير وكأنما لم يكن يصرخ منذ لحظات.. لا يفهم أبي في البداية.. ولكنه لم يلبث أن نظر إلى ما كان ينظر إليه صغيره.. ابتسم.. ثم انحنى يقبل صغيره في حب....

لكن الصغير لم ينتبه.. ظل يحدق في الشاشة صاغرًا ويستمع إلى الأذان...

العام الثلاثون

النبضات في جهاز رسم القلب.. صوت أنفاسي يتجسَّم تحت خيمة قناع الأوكسجين.. العرق يتجمع على جبهتي.. أدفع أطنانًا من الألم كي أتنفس.. صوت الطنين في أذني.. أغيب وأعود.. وعيي يتلاعب بي فتمتزج خرافات أحلامي بأحداث حقيقية..

حين أستعيد وعيي أعرف من قلق من حولي أن الأمر خطير...

أغيب.. أعود مرة أخرى...

"إنه سرطان.. سوف يمر عليك الطبيب ستيف ليخبرك بالنظام العلاجي الذي سوف يبدأ من الغد".

"أين الأنبوب؟.. احضروه حالًا"..

"اصمتي.. أنتِ لا تفهمين شيئًا.. أنت يا حشرة لا تعرفين معنى الحياة لشابٍ مثلي.. ماذا تساوي حياتك أمثالك.. اغربي عني".

"أحضر الدواء.. أسرع".

"كلنا مهم وعظيم في نظر نفسه وأهله"..

"املأ الحقنة".

"عزيزي لا تغضب.. هذا هو (هانز).. هو رجل شديدة الأمانة في عمله وتقاريره شديد الحرص على سير الأمور لذا هو ينجح ولذا يثق به الجميع"...

"معدَّل التنفس.. التنفس".

"أنت أيها الموظف الجديد.. هل جننت؟.. الجو قاتل ها هنا فماذا تنتظر؟"

"أعطني المحلول"..

"سامحني يا أبي.. ليس بيدي"..

"توقَّف.. لا تعطه المزيد".

"أربع سنوات يا أحمد.. تعبث بي كل هذه السنين".

"ثبِّتي المحلول هناك".

"بل هي مشيئة الله.. أنت - ربما - شخص طاهر يا أحمد.. لذلك لم يعطك الله منحته.. لأن أمثالنا سوف يموتون مائة مرة في اليوم قبل أن يأتيهم الموت عذابًا على ما تركوه في الدنيا".

"تقدَّم أيها الطبيب.. ساعدنا".

"هذا عمل خيري أيها اللئيم.. لا تنسَ أننا نحمل سلعًا مبنية على التبرعات.. يجب أن نوزعها بأنفسها.. هكذا تقتضي الأمانة".

"ماذا تفعلون؟.. سيموت يا حمقى".

"مولر؟.. لا لم يعد إلى غرفته.. لقد توفي اليوم صباحًا".

"احقنه.. أسرع".

"من حقك أن تدعو زملاءك لعيد ميلادك.. ومن حق أمك أن ترفض.. من حقها أن تقول حجتها.. ومن حقك ألا تقتنع.. وأن تجادل ما دمت لم تتجاوز.. في النهاية مَن الأعلى في نظرك.. أمك أم زملاؤك؟"

"كم الضغط؟.. الضغط"..

"جئت أعتذر.. لقد فقدت اتزاني بعد معرفتي بما حل بوالدي.. لذا نسيت أن أشكرك على موقفك النبيل".

"النبض.. كم النبض؟"

"أنا عيد ميلادي اليوم..في بيتنا.. والدتي تدعوك للحضور".

"ساعدوني من فضلكم.. أعطني الجهاز".

"لا أحب المدرسة.. خذيني معك.. لا أحب هذا المكان".

"أفرِغ"...

"بابا.. يعني إيه مات يا بابا؟"

"................."

صوت جهاز رسم القلب.. الصفير.. صوت الأنفاس...

الآن أرى الوجوه أمامي فلا أعرف الحلم من الحقيقة.. أبي.. أمي.. (لويز).. (مولر).. أرى (بيير) يقف خلف الحاجز الزجاجي والدموع تغرق عينيه.. من خلفه بعض البشر.. هؤلاء زملائي في العمل.. لا أفهم.. أرى كآخر ما أرى الكعكة المغلّفة في يده...

كعكة؟!.. مرت لحظات طويلة كي أفهم...

اليوم عيد ميلادي الثلاثين...

أردتُ أن أبتسم لكنني لم أستطع.. السواد يزحف على مجال رؤيتي.. الصرخات العصبية من حولي...

أشعر أني أخف وزنًا بكثير.. أشعر همومي تنساب من بين ثنايا جسدي...

الآن لا أرى شيئًا..

لا أبكي.. لا أتألم.. لا أخاف...

الآن أترك كل المجد.. كل الحب.. كل الشوق.. كل الحزن.. وأرحل..

الآن يتعالى صفير الجهاز من جانبي...

الآن يكف طبيبي عن المحاولة...

الآن يكتفي بالنظر إلى وجهي...

إلى ابتسامة عرفت طريقها من بين كل هذا لتترك لي آخر ذكرى من دنياي....

من ذاكرتي...

ومن أحلامي...

إرهاصات وطنية ترقى
إلى مرتبة "الهرتلة"



"هي مصر دي بني آدم؟"

لم يفهم أحد من الإخوة المتراصين حولي مغزى هذا السؤال العجيب؟.. والحق أنني كنت ألقي هذا السؤال من منطلق الفضول لا أكثر.. لو لم تكن مصر إنسانًا فلماذا يتطاول الكثيرون بالكلام عليها.. هنا تطوَّع زميل مهذب وأوضح لي أن مصر في الحقيقة بلد وليست إنسانًا يتنفَّس.. أخبرني ألَّا أقلق.. فهم لا يسيئون إلى إنسان له وجود.. من ثمَّ يفقد الكلام قيمته.. لكنني كنت مصرًّا على أن أكرر السؤال.

كان من الصعب أن أسأل هؤلاء الذين يسبُّون في طابور العيش.. أو على أبواب المصالح الحكومية.. أو حتى هذا الذي يتصارع ليدفع للحكومة ما عليه من مخالفات.. فسؤال هؤلاء غير مأمون العواقب.. لكن حظي السعيد أتاح لي أن أسمع ذات التطاول من زميل لي في نفس العنبر.. فكانت فرصة لي أن أطرح هذا السؤال من جديد...

"هو أنت لما بتشتم إيه بالظبط؟"

فنظر لي غير فاهم...

"يعني هو أنت تقصد إيه بمصر دي؟"

فيضحك ضحكة قصيرة.. مريرة ويقول:

"هنتفلسف بقى؟"

* * *

قصر عابدين قصر أنيق.. مهيب.. شديد العظمة.. وبالتأكيد لا يختلف هذا من يوم لآخر.. لكن المشهد في هذا الصباح الكئيب كان حتمًا يختلف.. كان شديد الظلمة والسواد.. حين تحيطه قوات الجيش كالسوار يكون بالتأكيد كذلك.. مرعبًا كيفما يبدو من بعيد.. لكن الصورة بالتأكيد تبدو أشد قسوة لمن هم بالأساس من سكان هذا القصر...

الملك فاروق...

نعم هو بذات اسمه.. أعصابه تحترق.. وقد علم عن يقين أن كرامته ومكانته الرفيعة قد اهتزت.. لزم عليه أن يخضع لحفنة من الإنجليز.. ويا له من موقف مُذلّ.. يسير بخطى متثاقلة ويلقي نظرة بائسة من النافذة.. لا مجال للمكابرة.. بكل وضوح.. لا مجال للمكابرة...

نعم لا مجال للمكابرة.. هذا ما أدركه النحاس باشا أيضًا.. وربما في نفس التوقيت كذلك.. لقد صار بأمر الإنجليز رئيسًا

للوزراء مرة أخرى ورغم أنف الملك.. راح يرددها بداخله وشعور عميق بالثقة يملأ روحه القوية...

صوت سيارات الجيش يمتزج بأنفاس الملك الخانقة.. تلك التي تمتزج بأنفاس الثقة العميقة من قلب النحاس..

"كان لازم الملك يفهم من البداية.. أنا زعيم الأغلبية..".

* * *

سألت زميلي مجددًا:

"أنا أقصد إنك بتشتم على إيه بالظبط.. على الأرض يعني؟.. النيل.. البحر الأحمر والأبيض ولا الأهرامات ولا إيه؟"

همَّ بالرد.. لكن صوتًا ما انبعث من وسط زملاء العنبر ليأخذنا إلى بحر آخر...

"إمتى آخد الماجستير بقى؟" .. طبعًا علشان يخلع على برا..

سأله زميل آخر فقط ليطيل الحديث:

"هتروح فين؟"

"أوروبا أو أمريكا".

"لا لا يا عم.. الخليج أسهل وأربح بكثير"...

"لا يا زعيم.. أنت عايز تتجلد ولا إيه؟"

"لا أنا عايز أروح الإمارات.. إحنا بنحبهم وهم كمان بيحبونا".

ابتسمت ولم أعلق.. استرجع ذهني ساعتها حوار قصير دار منذ زمن بيني وبين عدد من أصدقائي المقربين.. كان يدور حول ما إذا كان من الواجب أن نبقى داخل الوطن تحت أي ظرف.. أم أن السفر في حد ذاته جزء من واجبنا نحو هذا البلد.. كنا نتحدث عن فائدة ما نجلبه من علم أو مال.. وأن ذلك في حد ذاته دور وطني مهم.. لكننا لم نكن نتحدث عن الهجرة.. وكان هذا منذ زمن بعيد...

أشعل أحدهم سيجارة ثم تسلق إلى فراشه العلوي ليجلس ويحدثنا من مستواه المرتفع:

"السفر مش سهل.. لازم يكون معاك شهادة علشان تشتغل هناك.. صحيح هي المعادلة أحسن ولا الزمالة؟"

جلس زميل آخر إلى جواري على طرف فراشه وقال:

"المعادلة.. أنا امتحنت أول جزء وجبت ٩٩".

"دا أنت جامد قوي".

"بس محدِّش قاللي كده في الكلية.. دا لو عرفوا إني بحضر معادلة هيذبحوني.. أصلي نايب في المستشفى.. ده كده أنا في نظرهم باتعدى حدودي وعامل فيها بورم".

ضحكة جماعية قصيرة...

"طيِّب إيه فرصته أكبر في الهجرة؟"

"المهم تكون أساسًا كفء علشان يخدوك بعد التعليم المهكّع اللي اتعلمته.. إحنا بقينا بنتنقّى زي الرُّز"..

ضحكة جماعية أخرى...

* * *

كان لهذا المكان طاقة روحية قاهرة لا شك فيها.. وكم من مكان يمتزج وجوده بمن فيه فيبدو كإنسان واحد له روح.. ذلك كان مجلس قيادة الثورة.. الوجوه الصارمة حول الطاولة.. ودخان السجائر يمتزج بنور الكشافات فيكرر الصورة السينمائية التي طالما صالت وجالت بعيدًا عن أرض الحقيقة...

تخيَّل أنهم في هذه الدقائق بالتحديد كانوا يقررون سبيل الحكم في مصر..كان التبدُّل السريع فوق قدرتهم على التصور..وصارت الصورة الملكية باهتة تحتاج إلى تغيير..هكذا صارت الجمهورية.. وهكذا صار الواجب المقرر أكثر من مجرد تغيير.. لقد صارت السلطة بأكملها في أيديهم.. صارت الدولة وصار للدولة أن تختار..

ديموقراطية أم ديكتاتورية.. ديكتاتورية المستبد العادل كما يحب أن يسميها من اعتنقوها..هكذا سار الجدال وطال البحث عن النتائج.

"نأخذ الأصوات"..

سبعة إلى واحد..

مزيد من النقاش.. عصبية واحتداد ثم..

"نأخذ الأصوات"..

وسبعة إلى واحد مرة أخرى...

صوت واحد مع الديموقراطية؟.. هذا عبث.. فقط عبد الناصر؟!!

وجه نحيف أسمر يتكلم من بين الوجوه محاولًا تهدئة الخلاف.. لكن ناصر الذي لم يعجبه ما يدور قال في ثورة:

"أنت قاعد تلخّص كلام الأعضاء وتقول أي كلام.. وبتتصرف كأنك رئيس مجلس قيادة الثورة.. أنت عايز إيه؟"

ثم يترك المجلس وينصرف.. غضبة عجيبة لم يعتادها الأعضاء وكان هذا فوق احتمال المجلس.. كان لا بد من عودة الرجل الأول إلى الطاولة حتى لا ينفرط العقد وتذهب القصة إلى الضياع.. هكذا اندفع الأعضاء من خلفه وقد بدأ السبيل الأوحد لترضيته هو الانصياع لرأيه...

"ماشي يا جمال.. اللي تشوفه".

أرضاه ذلك.. لكنها كانت ديموقراطية النَّفَس القصير بكل حال.. ولم يستطع أحد أن يلتزم بها طويلًا كما أراد.. كان

المصير في النهاية هو حملة واسعة من الاعتقالات قبل موعد الانتخابات الديموقراطية بفترة قصير..

هنا يهمس وجه آخر لشخص مهيب إلى جواره:

"كده هيفكر صح.. والأمور هتمشي مظبوط".

وقد كان...

* * *

جلس بجواري زميل آخر وسأل:

"هي المعادلة دي هتساعدني أسافر؟.. طيب هي بتتاخد ازاي؟"

ارتفع صوت زميل من وسط العنبر وهو ينزل من فراشه العلوي ليكون بيننا.. وقال قبل أن أتكلم أنا:

"ايه يا أخوانا إحنا كلنا هنسافر ولا إيه؟"

"عايز تقعد خليك يا حبيبي.. ربنا يوفقك".

ضحكة جماعية من ثم يرد زميلنا:

"لا بجد يا اخوانًا فيه إيه؟.. هو كلو هيطفش؟.. يا جماعة البلد دي مش وحشة للدرجة دي.. وحتى لو وحشة دي في الآخر بلدنا.. بس إحنا لازم نشد حيلنا شوية.. لو إحنا هنقول كده يا متعلمين.. يبقى الجاهل هيقول إيه؟"

"يا عم فكك من الحوار ده.. البلد لو عايزانا مكانتش رَمِتْنا هنا.. ثم أنت شايفهم بيعملوا بينا إيه يعني..".

ثم واحد آخر.. بصوت من بعيد:

"يا عم ما أحمد زويل خد جايزة نوبل.. استفدنا من وراه إيه؟.. هي البلد مفيش فايدة فيها"..

"يا جماعة بلاش سلبية.. ما هي الدنيا مش هتتغير بين يوم وليلة.. لازم نحاول ونصبر.. يعني شباب زيِّنا حاول أد إيه أصلًا؟"

"أيوه مش هتتغير بين يوم وليلة.. بس لازم يكون فيه بوادر.. بوادر يا اخوانًا.. لكن أنا مش شايف حد على باله أصلًا.. واضح إننا هنفضل كده".

"فعلًا يا إخوانًا مش لازم نبقى رقم واحد.. بس على الأقل نمشي في السكة الصح.. إحنا ماشين رونج واي..رونج واااي"..

* * *

"استقالة عبد الحكيم..".

رددها عبد الناصر في تركيز...

"استقالة عبد الحكيم.."..

يده تمسك الاستقالة وفي داخله حالة هي مزيج من المشاعر.. مشاعر الغيظ من الفشل المؤسف في سوريا.. والتي لم

تمنع قدرًا من الارتياح أن يستشري بين ثنيات الغيظ لهذه الفرصة التي سنحت.. حتى ولو كانت تلك الفرصة قد جاءت متأخرًا جدًّا.

العام ١٩٦١

كان يعلم أن هذه الخطوة كان لها أن تُتخذ منذ دهر.. منذ عام ١٩٥٦.. كان عبد الناصر قد رأى من بين سطور الأحداث تقصيرًا عسكريًّا واضحًا في سبل الدفاع.. تقصيرًا أبرز وجهه القبيح حين آن له أن يُختبر.. ولم يكن العدوان الثلاثي ساعتها بالاختبار السهل.. كان يفضح أي تقصير...

لكن الترحيب بالاستقالة بقي على الرغم من ذلك لعبة شديدة الخطورة.. بقي كذلك لأسباب عديدة.

"بس عمِّنا ملحقش يفرح بالاستقالة".

قالها أحد مراكز القوى لآخر.. وكان يسير منتشيًا فرد عليه الآخر وكفيه في جيبي سترته:

"طبعًا.. عبد الحكيم بيناوش وبس.. ولما اتأخر جمال في الرد عليه عرف إن جمال ممكن يوافق.. فراح وطلب من جمال سد متطلبات محتاجها الجيش.. وكأنه بيأكد إنه لسه في منصبه".

"علشان كده اجتمع بينا جمال لتحديد موقفنا تجاه عامر"..

"إحنا مالنا.. هو الزعيم وهو اللي ياخد القرار..وهو عارف كويس إن قرار زي ده اتأخَّر أوي".

"بس اللي حصل إنه بعد ما جمال صارح عامر بقراره وعرض عليه منصب بديل رفض عامر وبعنف أي مكان غير القوات المسلحة.. وبقى بيضغط على جمال باستقالة رسمية كاتب فيها أنه استقال من أجل الديموقراطية المسلوبة وحقوق الشعب وخلافه.. صعب جمال يقبل استقالة زي دي.. الحقيقة أنا مش عارف الصِّدام ده هينتهي فين؟.. عامر ليه جمهور مش قليل في الجيش".

لكن الأيام سارت سريعًا.. ومعها تشكلت الأحداث لتصنع الواقع والنتيجة.. وها هو عامر يقف مجددًا إلى جوار عبد الناصر كما اعتاد المجلس واعتاد الناس في الشارع.. لا بصفته القائد العام للقوات المسلحة.. ولكن في صورة بَدَتْ للبعض جديدة تمامًا.. هي صفة نائب القائد العام للقوات المسلحة....

"وفيه حاجة اتغيَّرت؟"

"إطلاقًا.. هو منصب شرفي في حد ذاته.. لكن رجالة عامر فضْلوا زي ما همَّا وعامر طبعًا بقى بيمارس سلطاته زي ما كان".

"خسارة...".

* * *

"رونج واي مش رونج واي مش فارقة.. حقيقي فرصة أي حد فينا إنه يسافر.. هنا هتشتغل موظف مش دكتور.. وتقعد في الوحدة الصحية بطولك من غير لا إمكانيات ولا إشراف.. علشان يعدي عليك التفتيش كل شويَّة يدوَّر على الدفاتر والعُهَد والنظافة وخلافه.. وعمر ما حد هيعلّمك حاجة لحد ما تتطلع صورة في الجرنال وتحتها مانشت: أخطاء الأطباء - جرائم الأطباء".

"بس يا أخي الغربة والبهدلة و..."

"غربة إيه؟.. يا عم أنا مش عايز من البلد غير أهلي آخدهم معايا.. والبهدلة مفيش بعد كده بهدلة.. بس يا عم إحنا نعرف نسافر"..

"يعني الخلاصة يا جماعة إنه بعد كام سنة هنلاقي اللي على وش القفص هو اللي هيخلع والمعطوب هو اللي هيفضل هنا.. وغصب عنه كمان".

"بس يا اخوانًا بالمنظر ده هنسيبها تخرب.. البلد محتاجنا.. والله الموضوع مش شعارات.. بس المهم فيه كام واحد مستعد يتعب علشان البلد مش علشان يطلع بقرشين ويأمِّن مستقبله وبس؟"

"مين قالك أن البلد محتاجاك؟.. طيب ماحنا هنا تحت أمرها أهو.. استفادت مِنّنا ازاي.. عملت بينا إيه؟.. إنت فاكر إنك

لو حدت المعادلة أو الزمالة الناس هنا هتطير بيك ولا هيرقوك ولا هيزودوا مرتبك حاجة محترمة.. اسأل أخونا أبو ٩٩.. ولّا فاكر لما تسافر أمريكا شوية وترجع هيقولولك تعال فِدْنا بعلمك الغزير.. لا يا ابني والله هيقولولك إنت مين يا ابن امبارح؟ وأنت سنك كام سنة؟"

لم يلتقط أحد بعدها طرف الحديث منه.. وكأنما لم يعد هناك ما يقال.. فقط الصمت.. صمت يحمل رائحة الإحباط وخيبة الأمل.. ذلك الصمت المرير...

دقيقة.. دقيقتان.. الكل يفترش الأسرة ويحدّق في سقف العنبر...

من بيننا سمعنا الصوت الهامس يسأل:

"صحيح يا جماعة.. يا ترى المكان ده كان فيه حد من اللي حاربوا في ٧٣؟"

....

* * *

"مستحيل.. أنا أكيد مش عايش اللحظة ديًّا.. أكيد مش عايشها".

قالها وأقدامه ترتجف على الأرض.. عيناه تحدقان في الفراغ.. جسده لا يقوى على الحركة.. وعقله المذهول قد توقف تمامًا عن العمل...

لم يكن عبد الناصر أحمقًا أو مبالغًا إذن.. لقد حذرهم.. السبت أو الأحد أو الأثنين على أقصى تقدير.. ٥ يونية.. كان معه حق.. ولم ينصرف جمال قبل أن يصدّق على خطة الدفاع لرد الهجوم المنتظر...

والآن...

كيف يفسر هذا؟.. كيف يفسر هذا الجمال؟.. قوات العدو تحقق الآن ما عجزت عن تحقيقه في ٥٦.. حين كانت القوة العسكرية المصرية أقل حجمًا وتدريبًا بدرجات.. والخطة التي صدَّق عليها جمال وما تم فيها.. كيف يفسر أن الحرب قد بدأت وانتهت وهو في الجو مع قادته يتفقد سيناء...

كيف يمكن له أن ينتهي هكذا؟!

لا يعرف كيف حدث هذا؟.. ولا يعرف كيف وجد نفسه وجهًا لوجه أمام ناصر...

"إحنا انضربنا بالطيران الأمريكي يا ريِّس.. دي مش هجمة عادية.. الإسرائيليين ميقدروش على ده لوحدهم".

هذا ما استطاع عامر أن يقوله يومها.. لكن عبد الناصر لم يعد قادرًا بعد الآن على التعامل بدبلوماسية.. كانت ثورته تفوق الاحتمال.. ولم يكن عامر قادرًا على المواجهة.. هذه المرة على الأقل...

"ورِّيني جناح طيارة واحدة من سلاح الطيران الأمريكى يا عامر.. لا يا عامر.. مش هينفع أصدقك المرة دي.. أبدًا"..

"يا ريِّس صدقني.."

"كفاية يا عامر.. كفاية".

ومن بعيد وقف (أنور) يراقب الموقف في حيرة...

"إزاى حصل الكلام ده؟.. الخطة المحكمة.. والجيش المتأهِّب"..

كانت لحظة نادرة تلك التي يكون فيها الصمت أقوى من كثرة النواح.. الظل الأسود القاسي يفترش السماء في وضح النهار.. يكاد يتكلم.. يكاد يصرخ في قلب الشعب الصمد...

إن القضية أكبر من حرب تخسرها...

إنه تاريخ لن يعود أبدًا كما كان...

* * *

"ياااااااااااه.. ايه اللي خلاك تفكَّر في الموضوع ده؟"

اعتدل السائل من نومته.. أجاب:

"مش عارف.. أحيانًا بفكَّر الناس دي ازاي اتحمِّلت؟.. همَّا كانوا بيفكروا في إيه وهمَّا قاعدين مِستنّيين المجهول.. مستنيين قرار بحرب مش عارفين إذا كانت هتقوم ولا لأ.. معقول دول

كانوا ناس من لحم ودم زيِّنا.. ويمكن كانوا هنا في يوم من الأيام؟"

هز أحدهم رأسه وكأنما يتخيل ما دار في ذهن صاحبه.. فكرة عجيبة...

"أحيانًا بفكَّر.. هو مين السبب في اللي وصلوا له؟"

أثارت عبارته الكثير وأسرع أحدنا يرد عليه في حدة:

"يا أخي متقولش كده دول أبطال وشهداء".

"يا سيدي طبعًا..بس أنا بسأل مين اللي وصَّلهم للحرب؟.. حرب هدفها إنك ترجع أرض كانت طول عمرها ملكك".

"مش فاهم".

"يعني ببساطة.. مين اللي جاب الهزيمة؟.. يا ترى النكسة دي كانت غلطة الشعب ودفعوا تمنها من دمهم وأرواحهم.. وعلشان كده كان لازم الشعب هو اللي يصحح غلطه ويحارب تاني في ٧٣.. ويدفع تاني من دمه وروحه؟"

"لا طبعًا.. قصدك إيه؟"

"ببساطة.. الناس مش هي اللي غلطت.. بس في النهاية هي اللي حاربت ودفعت التمن.. هي اللي صلّحت الغلط".

"في ناس كتير بتنسى مين اللي انتصر.. ناس بتقول السادات.. وناس بتقول لا ده كله كان تخطيط عبد الناصر..

الكلام مش غلط..بس الناس نسيت إن فيه مسعد وزكى وعبد الفتاح.. الناس هي اللي صحَّحِت غلطات الكبار.. وكلنا في النهاية بشر وبنغلط".

"وزي كده بالظبط.. لو كان السادات غلط في قرار الحرب كان مين هيدفع التمن؟.. ولو كان فعلًا غلط في توقيع كامب ديفيد مين برضوا اللي هيدفع التمن؟.. الناس مش قادرة تفهم إنها هي البطل".

تنهد أحدهم في عمق وقال:

"حتى الحرب والنصر التاريخي مقدرش يوصَّلنا لأكثر من إننا نرجع لنقطة الصفر مع إسرائيل.. ويمكن أقل.. وفى الآخر سلام وكامب ديفيد وخلصنا على كده".

صمتٌ آخر.. ثم جلس أحدهم فجأة من استرخائه:

"هو إيه اللي فتح الموضوع ده؟ ما احنا كنا بنتكلم في مستقبلنا دلوقت".

تكلمت أنا.. ربما بعد ساعة من الصمت.. حتى إن كثيرين علقوا على صمتي وإحجامي عن المشاركة:

"بالعكس.. ده بالظبط نفس الموضوع".

"متهيألي كده برضو"..

أكملت:

"كامب ديفيد مش اختراع ناصر ولا اختراع السادات.. دي صورة فرضتها علينا ٦٧.. صورة اتهيَّألنا - يمكن صح

ويمكن غلط – إنها أفضل استغلال للمعطيات الموجودة والحرب قاسية لسه في حَمْوِتْها".

"قصدك إن السادات...".

قاطعته منعًا للمهاترات:

"السادات عرف هو فين.. وإيه اللي ممكن يقدر عليه.. وإيه اللي مش ممكن.. مش مهم أنا معاه ولا ضده.. بس أنا متأكد إنه في النهاية ملعبش على معطيات يوم أو يومين.. لكن على معطيات تاريخ بقاله ثلاثين سنة.. مقدرش أظلمه.. وفي رأيي الشخصي.. انتصارك عمره ما هييجي بحرب ولا اتنين ولا عشرة.. الحرب مش كفاية علشان تنتصر خاصة في وضعنا الحالي.. ٧٣ رجَّعت الموقف للبداية لكنها مَأَنْهِتوش..".

"يعني هنفضل كده؟"

"أنت ممكن تحتاج لحرب أو تكون مستعد لحرب أو فعلًا تحارب.. ده ضروري.. بس لازم تعرف إن الحرب وسيلة مش هدف.. إمتى تغلب عدوك؟.. بحرب أو اتنين؟.. بس؟.. لو الكلام ده حقيقي كان زمان ألمانيا اتمحت من على الخريطة.. أعتقد إنك تقدر تهزم عدوك لما تكون فعليًّا أقوى منه.. القوة مش قوة سلاح وبس.. القوة قوة سلاح.. سياسة.. اقتصاد.. علم.. ثقافة.. يعني باختصار إنك تكون متقدم عن عدوك..

موجود على الخريطة.. والعالم كله بيعمل لثقلك السياسي واقتصادك ألف حساب.. وعارف كمان إن ليك جيش قوي يوم ما تحتاج له.. وإنك مش خايف تحارب لأن اقتصادك يقدر يصمد قدام الحرب".

"يعني..؟"

"يعني ٧٣ وكامب ديفيد والقصة دي كلها انتهت بنتيجة واحدة.. صعب إننا بعد كل السنين دي نقعد نناقش إذا كانت كامب ديفيد صح ولا غلط.. لأن ده كله متأخر قوي.. تضييع للوقت.. اللي يستحق نناقشه بجد هو نتيجة كامب ديفيد.. النتيجة إنّها حطّتنا - على الأقل بصورة مؤقتة - بعيد عن خط الحرب.. وده واقع لازم نستفيد منه أكثر ما ننقضه.. عدوك زيّك وفيه كثير من الإسرائيلين رافضين كامب ديفيد.. وشافين إن اسرائيل لازم تحارب وترجّع سينا.. لكن عدوك في النهاية عارف بيعمل إيه.. وبيستفيد من الواقع اللي هو فرضه على نفسه.. الترسانة النووية موجودة في إيد روسيا وأمريكا لكن مين الأقوى.. أمريكا وروسيا كانوا وما زالوا رمز للتصارع.. لكن فيه كام حرب قامت بينهم؟!! أمريكا عمرها ما حاربت روسيا على الأرض.. لكنها قدرت تهزمها على الواقع.. ودا مايمنعش إن التسليح في أمريكا يكون على أعلى مستوى".

لا أدري لماذا صمت الجميع بعد كلامي.. هل فهموا ما أقصد؟

هنا همس أحدهم:

"فعلًا.. الحرب كانت آخر حروب القرن.. وبرضو أول الحروب.. جثث الشهداء اللي اتفرشت في ٧٣ مكانتش تعرف إن الهدف منها في النهاية يوم أجازة أو احتفالات تتعمل كل سنة.. الناس دي ماتت علشان تدينا الفرصة نعيش ونبتدي من جديد.. نصحح التاريخ الفاسد اللي انحرف بينا لحد موصلنا لـــ٤٨.. نرسم التاريخ لمرة واحدة في حياتنا بدل ما هو دايمًا بيترسملنا".

صمت من جديد.. صمت مرير آخر ثم:

"لكن مفيش حاجة حصلت.. محدّش فهم معنى أكتوبر.. افتكروا إن دي ضربية دفعها الجيل ده من أعصابه ودمه علشان جيلنا يرتاح.. كأنه بيقولنا: خلاص احنا ريّحناكم من الدوشة ووجع الدماغ.. ناموا مفيش حروب بعد كده".

هنا عاودتُ حديثي وقلت:

"كان المفروض إننا نضحي أكتر مما همّا ضحوا.. نحارب زي ما حاربوا.. نجري جري.. نعرف إن القصة مجرد هدنة.. نسبق الزمن علشان نكون أقوى وأخطر.. جتلنا الفرصة نحاول ننتصر من غير خراب.. جثث الشهداء خرّجتنا من سجن الحرب علشان تدينا الفرصة دي.. يمكن لآخر مرة"...

"وفي النهاية الناس محدتش من الحرب غير الأغاني والاحتفالات".

"إحنا - المصريين - حاربنا حرب عظيمة وكسبناها.. لكن للأسف مقدرناش على حرب تانية بعدها.. عارفين ليه؟.. لأننا مفهمناش إن حرب ٧٣ زي ما كانت حرب شعب.. أي حرب في النهاية هي حرب شعب.. هو اللي بيحارب وهو اللي بينتصر".

تنهد زميل لي وقال:

"ضحوا تضحية كبيرة.. خسارة.. حقيقي خسارة".

ثم ساد صمت أخير.. ساد لبرهة استرجعنا فيها ما قيل.. من بين الصمت تكلم صوت بطيء..قال لنا كلمة قاسية:

"يا اخوانًا لازم تعرفوا إن لحد يوم ٤ يونيه ٦٧ مكانش حد يعرف يعني إيه نكسة.. واحنا لحد دلوقت الحمد لله منعرفش غير نكسة واحدة.. بكرة يمكن يكون يوم عادي وممكن يكون لأ.. لأن أكيد محدش هيجيي يستأذنك قبل ما يغيَّر تاريخك".

ساد نفس الصمت الثقيل مجددًا.. هذه المرة لم يتكلم أحد على الإطلاق...

فقط الصمت.. والتفكير...

والنور من حولنا يتسرب كالماء إلى خارج أسوار العقل...

ساعتها لم أجد من قلبي غير تنهيدة أردت أن ترى النور.. تكلمت من بين أسوار الصمت.. سرت في بطء حتى منتصف العنبر وقلت:

"اقرءوا لهم الفاتحة يا جماعة".

* * *

"مسعد وزكي وعبد الفتاح"...

مسعد ينزف في غزارة.. امتدت أيدي زكي وعبد الفتاح تحاول في استماتة أن تجره معهما.. مشهد طالما تكرر كثيرًا.. النيران في كل مكان.. وإعصار من الجحيم يضرب المكان.. العرق والغبار والصراخ وقرص الشمس اللافح يهمين على الصحراء من حولهم...

"سيبوني هنا.. الحمد لله.. أنا مش عايز حاجة تاني.. إحنا انتصرنا وأنا خلاص على باب الشهادة.. أنا عايز أموت شهيد..".

دمعت عين رفيقه زكي وهم بقول شيئًا لكن زميله عقّب:

"مفيش وقت للكلام.. بس أرجوكم كملوا.. كفاية اللي ماتوا من غير ثمن في ٦٧..خلوها المرة دي بثمن..كملوا ومتخلوناش تتذل تاني".

ثم أشار إلى زميله عبد الفتاح فانحنى الأخير على ركبته كي يستمع إلى ما يريد أن يهمس به زميله له:

"متبقوش تقولوا نكت على الصعايدة تاني.. إحنا مش ناس غيركوا.. آديك شوفت الصعايدة اللي على حق".

قالها وابتسم فامتزجت دموع زميله بضحكته القصيرة الواهنة.. ثم أخذ مسعد نفسًا عميقًا ونظر للسماء وهو يردد:

"الحمد لله إن فيه ملايين في مصر هيقروا علينا الفاتحة".

قالها ثم أسلم نفسه...

وتعالى صوت النار من حوله.. والأقدام تتقدم.. وتتقدم.. وتتقدم....

وجه آخر

حين استقل (عاصم العمري) سيارته من أمام أسوار مصانعه لم يكن أبدًا كما كان منذ ساعة.. هكذا لاحظ سائقه العجوز.. لكنه لم يجسر - كعادته - على التعليق.

كان يعلم أن رجلًا مثل (عاصم) من المستحيل أن يفقد أعصابه.. لو كان ممن يفقدون أعصابهم لما صار ما صار عليه في عالم المال والسياسة.. كان يعلم أن هذه اللحظات قطعًا لحظات استثنائية.

وهكذا فكر (عاصم) أيضًا...

كان يراها أيضًا لحظات استثنائية.. استثنائية من حياته كلها...

راحت أضواء الشوارع تعدو فوق أنظار الرجل الثائر من خلف زجاج سيارته وهو يحدق في الفراغ بلا هدف.. فكر كثيرًا ووجد نفسه لأول مرة يفقد الاتزان.. يتلقَّى الضربة تلو الأخرى فلا يعرف لها مصدرًا ولا يعرف لنفسه وسيلة للنجاة منها.

كان على وشك الانهيار.. و لم تكن الحلول بالطبع موجودة.

أوشكت اللحظة التي يرى فيها العالم أنه لم يعد قادرًا على النجاح.. تكاد إمبراطوريته تنهار أمام الجميع.. تنهار لتسقط معها حتى نجاحاته السياسية المدوية.

هكذا فكر.. راح يفرك عينيه من خلف منظاره وكأنما يستجدي فانوس أفكاره السحري الذى طالما أنقذه.. كان ذلك فيما مضى...

توقفت سيارته أمام باب شركته المهيب.. فأفاق من لحظات فكره السوداء.. أخذ نفسًا عميقًا كي يتمالك نفسه ثم نزل من سيارته..

كانت الدنيا ليلًا...

لكن (عاصم) اعتاد في كل أزمة أن يبقى في مكتبه.. يستعيد من ماضيه وحاضره ويفكر حتى ينتصف الليل عليه وقد عرف له طريقًا يسلكه.

الآن يجرب.. ربما للمرة الأخيرة...

كان المدخل مظلمًا.. وكان يسير شارد العقل باتجاهه.. فجأة تحرك جزء من ظلمة المدخل وكأنه كيان منفصل.. أجفل لكنه ما لبث أن تبين ما حدث.. كان رجلًا يرتدى حلة سوداء حتى بدا كقطعة من الظلام الدامس...

"ما هذا؟.. من أنت؟"

أفرغ توتره في كلماته الحادة.. لكن الرجل على الرغم من ذلك ابتسم ومد يده يصافح (عاصم):

"(سامي أبو الخير).. تستطيع أن تسميني رجل أعمال أو شريك في شركة أعمال غير تقليدية".

ثم ناوله بطاقته الملونة.. تناولها (عاصم) و لم يصافحه.. قال في انفعال:

"اهلًا وسهلًا.. اسمح لي بدخول شركتي.. فرصة سعيدة"...

أوقفه الرجل بحركة من يده:

"انتظر يا أستاذ (عصام).. لقد كنت في انتظارك وليس من اللائق أن تتركني وتنصرف".

"كنت في انتظاري؟.. هنا؟.. ماذا تريد؟"

"تستطيع أن تقول إنني على علم بما حلّ بأعمالك وأراك شديد الانفعال هذه الليلة.. لذا فأنا موكّل من زملائي بالشركة لمساعدتك".

"مساعدتي؟!"

قالها مستنكرًا.. لم يكن يتخيل أن هذا ما يريده هذا الشخص منه...

"أية مساعدة؟!.. أنا (عاصم العمري) يا بني.. ثم إنني لم أسمع يومًا بك أو بشركتك.. كيف تظن ومن معك أنني بحاجة لشراكتكم أو للتعامل معكم".

"سيدي أنا لم أتحدث عن مساعدة مادية أو شراكة.. ما أتحدث عنه هو خدمة نعرضها عليك.. خدمة أنت في أشد الحاجة إليها الآن".

توتر الرجل أكثر:

"خدمة؟.. أية خدمة؟!"

"سيدي.. أنت رجل أعمال كبير وتعلم أن هذه الأمور لا تناقش على الأرصفة.. أحتاج من وقتك نصف ساعة.. وأعدك أن ما أقوله يستحق".

ثم ناوله ورقة موقعة وأتبع:

"هذا شيك بمليون دولار.. يمكنك أن تصرفه فورًا لو شعرت أنني قد أضعت وقتك".

صمت الرجل ولم يجد ما يقال...

لحظات وعاد إلى سيارته من جديد ولكن برفقة.

***

"أعداؤك.. خصومك الذين يتلاعبون بك ولا تراهم.. قد تعرف بعضهم. لكنك بالقطع لا تعرف ما يخططون له الآن".

هكذا تكلم (سامي).. كانا يجلسان على مائدة بأحد المطاعم العائمة وكان (عاصم) يستمع.. وكان يقلب في بطاقة الرجل أيضًا.

"سامي أبو الخير.. عضو مجلس إدارة شركة الساعة للاستيراد والتصدير".

هكذا قالت البطاقة.. واصل (سامي):

"أليس هؤلاء هم من يدمرون حياتك؟"

مال عليه (عاصم) وقال:

"قدِّم عرضك؟"

"سوف تتخلص منهم".

قالها (سامي) وابتسم.. كذلك فعل (عاصم).. لكنه ابتسم متعصبًا في الواقع:

"الآن يمكنني أن أصرف شيكك عن ضمير مستريح.. اسمع أيها الطفل أنت وأصدقاءك.. عالم رجال الأعمال ليس كما تشاهدون في السينما الرخيصة.. أنا لا أبحث عن قتلة مأجورين ليتخلصوا من خصومي.. أنت تتحدث مع رجل أعمـــ..."

قاطعه (سامي) بإشارة حادة من يده أن توقّف.. قال له:

"من تحدث عن السينما والقتلة وهذا الحديث المتبذل؟.. انظر إلى الشيك بيدك يا سيدي.. ما تقول لا يستحق حتى ربع هذا المبلغ.. أنت تتحدث إلى شركة محترمة".

"لا أفهم".

"عرضي لك مختلف تمامًا.. أنا أعرض عليك أن تنتصر على خصومك.. أن تدمر أنشطتهم وأن تعرف مخططاهم دون أن يفهم أحد على الأرض كيف يحدث ذلك.. حتى الشك فيك سيصير شديد الصعوبة".

"لا أفهم".

تغيرت لهجة (سامي) لتكسوها الجدية والثقة.. قال له:

"عرضي لك.. سوف تعرف عن أعدائك كل شيء.. كل لعبة أو مؤامرة تحاك ضدك سوف نكشفها لك.. كل تفصيلة ولو صغيرة عنهم سوف تكون عندك في ثوان.. ستعرف عنهم ما يحميك منهم وما يضعهم هم تحت رحمتك".

ارتعش (عاصم).. تخيل للحظة أن يكون هذا صحيحًا.. صورة حالمة قاوم كثيرًا حتى يطردها من خياله.. قال في حدة:

"كيف؟"

رد في حزم:

"هذا لا يعنيك.. ولن يكون لنا معك أي تعامل مباشر.. فقط تلاقي مكالمتنا على هاتفك لتخبرك بما نعلم أنك تحتاج إليه.. المقابل المادي يسدد كل شهر بشيكات.. طريقة الدفع تتغير كل شهر حسب التعليمات.. نحتاج إلى مئة ألف دولار شهريًا.. ولن تتعامل معنا بصورة مباشرة أبدًا".

"هل جننت؟.. كيف أدفع هذا المبلغ مقابل حديثك الذي لا يصدقه عقل؟"

أجابه.. واثقًا:

"سوف يصدقه.. سوف يصدقه لأن عرضنا سوف يبدأ من الغد.. وسوف تدفع للمرة الأولى بعد شهر.. سوف تجربنا أولًا دون أن تدفع قرشًا واحدًا من مالك.. لكنك قطعًا سوف تدفع بعد ذلك عن رضا.. أعرف ما أتكلم عنه.. لا مخاطرة ولا خسائر سيد (عاصم)".

ارتعش (عاصم) ولم يتكلم.. صفقة مقلقة.. حاول أن يبحث خلفها عن خدعة خفية أو خطة لاستغلاله فلم يجد.. فكر كثيرًا لكن حبه للمجازفة غلب عقله.. تجربة صغيرة يمكنه أن يتراجع عنها في أي وقت.. نظر إلى (سامي).. فابتسم الأخير وقد قرأ عيني (عاصم) جيدًا..

"ممتاز.. لن تندم أبدًا سيد (عاصم)".

ثم نهض وهو يغلق سترته قبل أن يمد يده قائلًا في ثقة:

"الشيك".

***

انتظر (عاصم) طويلًا في اليوم الأول.. كان جالسًا على مكتبه يحدق في الهاتف طول الوقت حتى شعر بسخف الفكرة.. في اليوم الثاني بدأ يتناسى.. وفي اليوم الثالث كان قد نسي فعلًا..

في اليوم الرابع رن هاتفه برقم خاص.. فرد في تلقائية:

"ألو؟"

"(سامي) يرسل تحياته"..

"(سام....)"..

ثم تذكر كل شيء بغتة فارتجف.. لم يجد فرصة للإجابة لأن الصوت تكلم وقال:

"المناقصة القادمة.. أقل سعر سيقدمه أحد من خصومك هو (زاهر).. الباقون سينسحبون لصالحه مقابل نسبة من الربح.. السعر الذي سيتقدم به هو مليون ونصف.. يمكنك الآن أن تتحرك"...

ثم انقطع الخط بغتة.. فظل (عاصم) يحدق في هاتفه لدقائق كالمجنون.. تمالك نفسه أخيرًا وبدأ يفكر.. لم تكن هذه المناقصة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة له.. ولم يكن يتوقع منها

انتصارًا أكيدًا.. هو يعلم ذلك وكذلك هم.. لقد حدثوه عن هذه المناقصة لأنهم يعلمون أنه قادر على المجازفة وتجريب ما قالوا.. يمكنه أن يعرف ساعتها إذا كان هؤلاء معه فعلًا أم أنها لعبة سخيفة من بعض المنافسين...

قرر (عاصم) أن يجرب.. عرض سعرًا يقل بعشرة آلاف جنيه فقط.. والغريب أنه ربح المناقصة.

بدأ (عاصم) يشك.. بل بدأ يصدق...

ربما بقيت شعرة من الشك.. لكنها حتمًا انقطعت مع المكالمة الثانية.

"ألو".

"(سامي) يرسل تحياته.. احذر.. السفينة القادمة إلى الميناء بعد غد.. (هشام) خصمك العتيد سوف يقوم بتعطيل دخولها إلى (مصر) حتى يتم إغراق السوق بمنتج منافس.. يعتمد في ذلك على موظفين في الجمارك.. (أحمد المصري) و(ياسر زكي).. يمكنك أن تتحرك".

تأكد للمرة الثانية أن ما قيل له كان في منتهى الدقة..

"ألو".

"(سامي) يرسل تحياته.. (عثمان) يستعد لصفقة قاسية.. استيراد تكييفات من شركة كورية منافسة لشركتك وبسعر أقل من

سعرك بمائتي جنيه.. التكييفات الجديدة بها عيب خطير في وحدة التبريد.. يمكنك أن تضربه من خلال ذلك بسهولة.. التفاصيل الفنية ستصلك الآن.. يمكنك أن تتحرك".

قبل أن يفهم أو يستوعب كانت رسالة جديدة قد أضيفت إلى صندوق بريده الإلكتروني.. محملة بكافة التفاصيل...

ومرة أخرى أبهروه بدقة معلوماتهم وأهميتها.. قرر (عاصم) أن يطمئن للمرة الأخيرة.. فأرسل رجاله يستفسرون عن شركة ساعة هذه.. وجدها بالفعل.. وتيقَّن من أنها شركة صغيرة محدودة النشاط.. وأنها موجودة في السوق منذ تسع سنوات.. ولا غبار عليها.. قرر (عاصم) ساعتها أن يجرب ولو لشهر أن يثق بهؤلاء.

بالفعل.. توالت المكالمات وازدادت إثارة.. أزمات مالية.. صفقات مشبوهة بالوثائق.. أرقام كل الصفقات والأرباح.. وجد الرجل نفسه أمام سحر لا يصدق.. وراحت ضرباته لأعدائه تزداد يومًا بعد يوم...

في نهاية الشهر جاءته المكالمة المنتظرة...

"انتظرني على الرصيف المقابل لفرع شركتك الثاني".

طبعًا لم يملك الرجل غير الانصياع.. و قد كان...

وأمام المبنى ظهر ظل أسود جديد لرجل لم يكن يعرفه.. دخل إلى سيارته و لم يتكلم.. فقط قال:

"انطلق إلى نهاية الشارع".

استجاب على الفور.. في حين ألقى الرجل نظرة على المبلغ ليطمئن...

في الأسبوع التالي كانت انتصارات (عاصم) المدوية تزلزل السوق.. وبدأ الكل يرتجف...

أما (عاصم) نفسه فلم يكن يصدق أحداث الشهر الأخير.. أي حظ سعيد ذلك الذي ألقى هؤلاء الناس في طريقه...

لكنه - حين تلقى المكالمة الجديدة - صار متيقنًا من أنه لا يتعامل مع بشر...

"ألو".

"(سامي) يرسل تحياته.. اذهب إلى فيلتك الخاصة الآن واترك بابها مفتوحًا.. لا تقاطعني.. أعلم بمشغولياتك وصعوبة تركك لمكتبك.. لكن ما أعرضه عليك الآن لن أعرضه عليك مجددًا.. عشر دقائق.. يمكنك أن تتحرك".

انتابت (عاصم) لحظة عابرة من الغيظ.. لم يكن يحب هذا الأسلوب.. لكنه كان يعرف جيدًا أن ما عندهم يستحق.. لذا لم يكابر.

لحظات وكان في فيلته الثانية.. ظل ينتظر...

دقائق وكان شخص في الأسود يتقدم إلى صالة الاستقبال من ثم صافح (عاصم) في حزم ثم ناوله ظرف مغلق دون أن يتكلم...

وهال (عاصم) ما رأى...

كانت مجموعة من الصور.. صور مسيئة تجمع أحد أهم خصومه مع ممثلة ناشئة في عمر ابنته.. صور لا يمكن أن يستوعب كيف تم التقاطها من داخل حصون هذا الرجل...

قال (عاصم) بصوت مبحوح:

"كم تريدون؟"

لم يكمل.. لأن الرجل انصرف من أمامه في خفة.. لكن (عاصم) لم يكترث.. وظل يحدق في الصور بلهفة...

ليلتها فكر كثيرًا.. لعبة قذرة.. لم يُرِد.. ولم يعتد أن يلعبها.. لكنه في النهاية تعرَّض لكثير من الألعاب القذرة.. الآن يملك أوراقًا موجعة.. ومن الصعب أن يضيع مثل هذه الفرصة بمثالية غير واقعية.

من ثم قرر أن يلعب.. ولم تكن المرة الأولى...

فعلى مدار أكثر من أربعة أشهر ظلت هذه الشركة تقدم وترسل له ما يسيل له اللعاب من الفضائح والسقطات المالية

والصفقات المشبوهة.. ورجالها يقابلونه في كل مكان.. وبكل وسيلة.. ليقدموا له ما يستحقون به أكثر مما يتقاضون.

وتصاعد صوت المارد ليضرب بيد من حديد على السوق بأكمله.. صار الوحش من جديد.. وصارت لحظات النشوة والفرح حكرًا عليه.. ساعتها أدرك أنه قد صعد فوق الموج ولن يسقط من جديد...

فقط شيء واحد عكر عليه صفاء نشوته.. كان ذلك حين حذره مدير مكتبه من انشغاله بعالم المال وسلسلة الضربات والانتصارات حتى أهمل وخسر كثيرا من قوته على الساحة السياسية كرجل بارز من رجالها وعضو في مجلس الشعب...

لم يكن كلام مدير مكتبه خياليًّا.. بالفعل راجع الرجل أوراقه وأدرك أن موقفه السياسي في خطر.. مقالات وبرامج وتحقيقات.. هناك من ينبش خلفه بالفعل...

خصوم.. خصوم.. يا لها من لعبة مرهقة!!

يوم جديد وتفكير جديد.. وجد (عاصم) نفسه يفكر بلا ترتيب في (سامي).. فكرة مجنونة لكنها تستحق.. لماذا لا تلعب هذه الشركة من جديد لصالحه.. ولكن هذه المرة ضد أعداء السياسة.. وبأجر مضاعف؟!

كان (عاصم) قد وصل إلى قناعة أنه لا يتعامل مع بشر.. هم جن أو شياطين أو حتى مخلوقات من الفضاء.. لا أحد يقدر على الوصول إلى ما وصلوا إليه من بني البشر أبدًا.. وربما لذلك فكر بهم أول ما فكر في هذه الأزمة الجديدة.. لا أحد يقدر على أعدائه غيرهم.

بقي الاتصال...

كان يعرف ألا سبيل للوصول إليهم.. فقط هم يفعلون.. وكان الشهر في بدايته.

انتباه.. شعور عارم بالتوتر.. اتصالات قليلة هذه الأيام.. وهو بحاجة إليهم.

كان قرارًا جريئًا.. لكنه لم يكن على استعداد للمخاطرة بكشف أمره.. قرر أن يذهب بنفسه إلى مقر الشركة.. لكن شعورًا عميقًا بالارتياب تلاعب به منذ وطأت قدماه أرض هذه الشركة.. شعور زاد منه ما قابله هناك من دهشة وترحاب لزيارته.. النظرات المتسعة تقول: "عاصم العمري بنفسه هنا"..

ترك أفكاره المرتابة بعيدًا وقرر أن يكشف كل الأوراق...

"(سامي أبو الخير) موجود؟"

"(سامي)؟.. لا يوجد هنا غير (سامي سلطان) يا سيدي وهو عامل البوفيه!!.. أتريد أن تراه؟"

طبعًا لم يحاول أن يناقشه لأنه كان متأكدًا من صدق ما قال..
وبدأت أنفاس (عاصم) تنسحب به.. كان يشك منذ البداية لكنه لم يجرؤ على الاعتراف.. هذه الصفقة المريبة.. وهؤلاء الناس.. والمعلومات التي لا يصل إليها الأبالسة.. الأبالسة؟.. حتمًا هم كذلك.. هم ليسوا بشرًا على الإطلاق.

وجد (عاصم) نفسه ينصرف على غير هدى.. يفكر.. هل يستمر في التعامل مع هؤلاء؟.. وكيف؟

لكن الإجابة جاءت قبل السؤال...

لو كان (عاصم) قد أخرج هاتفه من جيب سترته.. لو كان رأى كم من المرات هاتفه مدير مكتبه.. لو كان حتى قرأ رسالته.. لكان على الأقل فهم من هؤلاء الذين ينتظرونه أمام باب فيلته.. ولماذا يقبضون عليه...

لكنه - وبذهول عارم - بدأ يفهم...

ملفاته السرية وأدق تفاصيل حياته تغرق الصحف وقنوات الإعلام.. تُقدَّم إلى كل جهات المحاسبة في (مصر).. فجأة يصير الرجل الأسطورة عاريًا أمام الجميع.. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعتين صار فيهما اسم الرجل هو الأعلى في مصر.. ثم انتهت وانتهى معها كل شيء.. رُفعت الحصانة.. وصار على الرجل أن يواجه كل ذلك بنفسه وبلا حماية.

لحظة مستحيلة التصديق.. هكذا فكر (عاصم) وهو جالس في ركن زنزانته.. لكنها حقيقة.. شعور بين القهر والغضب.. من فعل ذلك به؟ لا يدري.. لكنه كان على يقين أن صفقته المشبوهة وراء كل ذلك بشكل أو بآخر.. لماذا باعوه؟ ولحساب من؟.. لم يكن يملك ما يقول حيال صفقته هذه أمام التحقيق.. لذلك فضل الصمت الطويل.. وترك لمحاميه محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

مر يومان.. عرف من محاميه أن الموقف غاية في الصعوبة.. وفي اليوم الثالث كانت زيارة (سامي) له...

في البداية أصابه الذهول.. الذهول من أنهم قد قبضوا عليه.. والغضب كل الغضب لأنه حتمًا وراء اللعبة.. فقط قابله (سامي) بابتسامة قاسية.. وأمسكه قبل أن ينقض عليه.. كان قويًا كالأسد.. قال له:

"أهدأ ولا تكن أحمقًا يا عزيزي.. أنا لست مسجونًا مثلك.. فنحن لا يمكن أن نسقط.. أنا هنا لزيارتك.. زيارة من نوع خاص".

ثم دفعه ليسقطه أرضًا.. تأوّه (عاصم) وسبَّه غاضبًا.. واصل (سامي):

"صديقي الغبي.. يجب أن تعرف أن الأمر كله أكبر من إداركك.. نحن لم نعرض خدمتنا عليك إلا لأن عدوًّا ضخمًا من أعدائك السياسين طلب خدمتنا أولًا.. طبعًا للقصاص منك".

"ولأننا اعتدنا ألا نصل لضحيتنا إلا برضاها التام.. ومن خلال أن تفتح هي لنا أبواب ثقتها.. فقد عرضنا خدماتنا عليك لتضرب أعداءك في عالم المال.. ربحنا أموال طائلة منك بالطبع.. وكذلك من عدوك في السياسة بعد أن أجهزنا عليك.. في الواقع كنا في غاية الرضا لأنك لم تلاحظ أن إخفاقتك السياسية الأخيرة كانت من خلالنا.. ربما لم تلاحظها من الأساس.. طبعًا لم نكن لنجازف بضربة كبرى إلا عندما نقرر إنهاء علاقتنا معك.. بعد أن تربَّحنا منك.. ولم يعد هناك ما نقدمه.. فقد نجحت بالفعل في القضاء على خصومك في السوق.. ولو كنا نريد أن نكشفهم لك في أسبوع لفعلنا.. لكن الأرباح كانت ستقل بالتأكيد".

"طبعًا نشكرك على ما قدمت من أموال.. نشكرك كذلك على أنك طرحت علينا قائمة طويلة من أعدائك.. كلهم يعرفون الآن (سامي).. وكلهم راح ضحية اللعبة.. بعد أن افترستهم أنت.. كلهم ربح في البداية.. كلهم كان له خصوم قد لا

تعرفهم حتى.. رغبتنا في الوصول إليهم جعلتنا نعرض خدماتنا عليهم.. سلسلة لا تنتهي يا صديقي".

ظل (عاصم) يحدق في ذهول.. لا يقوى على التفكير.. يحاول فهم هذه السلسلة الشيطانية.. فَهِم أن هؤلاء القوم...

"نسيطر على الجميع.. نعم يا (عاصم).. هذا التسلسل يجعلنا نصل إلى الجميع.. نسيطر ونتحكَّم".

لم يجد (عاصم) ما يقول.. أراد أن يقوم.. أن ينفعل.. أو حتى أن يضربه.. لكنه شعر بالمفاجأة تخدره.. تجعله كالسقيم لا يقوى على الحركة.. فقط يسمع...

قال (سامي) وهو يشير إلى الحارس على الباب كي يفتح له:

"نصيحة أخيرة يا صديقي.. تعلم أن كل تحالف صفقة.. وحين تلعب صفقتك مع من هم أقوى منك.. تذكر أن للصفقة في هذا الحال وجهين.. وجه يلعب لك.. ووجه بالقطع يلعب عليك.. درس يستحق أن تدفع حريتك ثمنًا له".

وجد (عاصم) نفسه يتذكر كالتائه.. يتذكر الظلال السوداء تدخل داره.. سيارته.. شركته.. بريده الإلكتروني.. تتحدث إليه في أدق أسراره.. توقِعه في كلام شديد الخطورة.. تذكر ذلك في مرارة.. تذكر ذلك ووقع أقدام (سامي) المغادِرة تدق على رأسه المحموم كالطبل...

الآن يفهم...

لقد كان أحمقًا...

بالقطع كان كذلك...

أنا الكبير



قال العربي مرة: أنا الكبير..

رد عليه عربي تاني وقاله: بأمارة إيه؟.. دا أنا الكبير.

قال عربي ثالث: مفيش كبير.. إحنا مش عايزين كبير.. خلوا بالكوا بلاش مشاكل.. خلوا حالنا بينا يمشي.

رد عليه عربي رابع: السفينة تحتاج كبير.. والعربي هو الكبير.. أنا بقول اللي في ضميري.

قال عربي خامس: فعلًا نحتاج كبير.. العربي هو الكبير.. وأنا معاكوا في كل كلمة.

قال العربي التاني: أنا مش عايزه الكبير.. بس صعب تقولوا شمال وأنا أصر أقول يمين.

رد عليه عربي سادس: أنا بينكم لسه ساكت.. بس لو لازم أقول.. أكيد هفكركم بنفسي.. وإن أنا فعلًا كبير.

قام رد عليه عربي سابع وقال: سفينتكوا الغرقانة خلاص.. معدتش تحتاج الكبير.. كل واحد فينا يجري.. ويدور ويشوف طريق.

***

سمع العربي مرة صوتًا بيناديه وبيقوله: العربي التاني عملها فيك...

اتجنن العربي وقال: إزاي اتجرأ عليًّا؟

قام رد عليه وقاله: هو ده تمن الخيانة..

قاله: مين قال إني خاين؟.. أنت ياما خنت ناسك.. والكل من حواليك عليك.. يشهد بعارك.

قال عربب ثالث: يا إخوان.. كفاية كلام ملهوش لزوم.. انسوا اللي فات.. ولا هي بس ناقصة تزودوها كمان خراب.. ربنا يستر علينا.

قال عربي رابع: ومين يا قوم ينسى اللي فات؟.. حقك يا عربي.

راح رد عربي خامس: اخزوا الشيطان.. مش كلام يتقال ما بينا.

قال العربي: مفيش نسيان.. مين معايا ومين معاه؟

جاله الصوت من بعيد بيقول: أنا من الأول معاك.

***

قال العربي: محتاجين مساعدة.

قاله عربي تاني: مين محتاج مساعدة؟.. يمكن أنت؟.. أنا مش محتاج مساعدة.

قال عربي ثالث: بس أكيد نحتاج لبعض.. زي ما الدنيا بتعمل.

قاله: يمكن؟.. بس ساعتها مش محتاج فقير.. مش عايز عميل.. مش عايز كبير.. أنا محتاج القوي.. بيه أبقى أقوى.

راح رد عربي رابع وقال: وأنا مش محتاج مساعدة.. لا قوي ولا ضعيف.. أنا أهدافي وعارفها وكلها بتصير حقيقة.. ومعايا وجنبي الكبار.. أكبر منكم كتير.

يجيء الصوت من بعيد يؤكد: طبعًا طبعًا.

قال عربي خامس: يعني خلاص خلص الكلام؟

سمعه عربي سادس وقاله: الكلام معروف من قبل ما يتقال.. حقيقة أحسنلك تشهد بكونها حقيقة.

سأله عربي سابع: من إمتى بقت حقيقة؟

راح رد عليه وقاله: من ساعة المصيبة.

***

قال العربي: مين عدوِّي؟

قاله عربي تاني: أنا شخصيًّا عدوِّي أعرفه.. بس اتعلمت إن الأخ ممكن.. يبقى في لحظة شيطان.. ويكون أخطر عليَّا من العدو.

سأله عربي ثالث: إزاي؟

راح رد قاله: عدوي عارف سكته ونيته.. وممكن بشوية لطافة منختلفش.. لكن أخويا دماغه ناشفة.. وعينه على كل اللي عندي.. يبقى لازم منه أخاف.

قاله عربي رابع: منين جبت الكلام ده؟

رد عليه: من السنين.

قاله عربي خامس: دي لعبة بتتلعب علينا والكل عارف.

قاله: عارف.. مش مهم.. الدنيا لعبة.. ولو أنا هاعرف أدوس.. هدوس.. حتى لو لعبوا عليَّا.. المهم في النهاية.. أعرف منهم استفيد.. والخطر يمشي بعيد.

راح قال عربي سادس: ممكن نجّمع فكرنا.. ومصلحتنا تكون طريق.

راح جاره قال: مصلحتي مش معاك.. السفينة خلاص بتغرق.. خلي نفسي لنفسي دايمًا.. ليا في كل مكان حليف.. يوم ماتخرَب ألاقي خندق.. ومين ساعتها يا سيدي يعرف.. مش يمكن ساعتها ألاقي نفسي..بقيت خلاص.. أنا الكبير.



مذكرات سيجارة بانجو..!!!



الحقيقة طول عمري أعرف إن العائلات العريقة دايما بتخرج منها أسماء عريقة.. يعني ممكن تلاقي عيلة كبيرة اسمها عيلة (رستم) أو (دويدار).. فبيخرج منها مهندس اسمه (هشام).. أو دكتور اسمه (مدحت).. أو محاسب اسمه (عماد).. مفيش عيلة بشوات مثلًا بيخرج منها أسامي زي (أبو سريع) أو (الفقري).. على الأقل دلوقت.. كلام جميل.. على أي أساس بقى اسمي أنا (بانجو).. (بانجو)؟!!.. ياي على منظر العالم الحشاشين وهم بيملوا بقهم هوا ويمطوا شفيفهم شبرين علشان تطلع الكلمة مظبوط.. (بانجو).. بففففف.. حاجة تقرف...

أدي اللي خدناه من البلد.. لو كنت في أوروبا ولا أمريكا كان زمان اسمه (بوبوس) ولا (بوسبوس).. مش (بانجو).. بانجو إيه بس؟.. يالّه.. المهم.. سيبك.. حب الجمهور هنا أهم من أي حاجة.. كفاية لما نزلت السوق النهاردة لأول مرة

وحسيت بالتجمهر.. عايزين احم.. عايزين بانجو.. عايزين بانجو.. أي نعم مناظر الجماهير كانت مش ولا بد.. بس مايجراش حاجة.

ولأني أول مرة كنت بنزل السوق في المنطقة دي.. ولأني كنت بسمع بس عن أخواتي اللي في أوروبا وأمريكا.. كان جميل جدًّا إن حظي يجي في بلد زي مصر.. وسط الشعبية الكبيرة دي.. وعرفت من يوم ما جيت على هنا إن الاستار ميكر بتاعي ووكيل أعمالي في المنطقة اللي هبدأ بيها هيكون واحد من الخبراء في المجال ده.. طبعًا الأسماء مش كل حاجة.. فمش مشكلة إن يكون اسمه الحاج (فيظة الغريق).. (فيظة)؟!!.. فيظة وبانجو؟.. أنا مش عارف المصريين دول بيتكلموا أنهي لغة.. المهم إن دماغ الحاج (فيظة) عجبتني من اللحظة الأولى.. وعرفت إننا أكيد هنكمل مع بعض.. في البداية قرر إنه يشتغل على منفذ بيع واحد.

"بس كده يا معنمى لو اتأفشنا هنضيع".

"ياض يا أهبل.. ما هو دا التكتيك.. إحنا المفروض نعمل أكتر من مُكنة علشان لو اتأفش مكان يبقى الباقي ما ضاعْش.. بس أنا لو عملت مُكنة واحدة الحكومة هتعرف إني أكيد مش بتاجر.. لإني أنا لو بتاجر أكيد هعمل أكتر من مُكنة يا حمار".

طبعًا أنا فهمته.. أنا الوحيد اللي فهمته الحقيقة...

وكان قمة انبهاري بدماغه العالية لما كان بيختار كلمة السر مع رجالته.. لازم محدش من بتوع المباحث يشك في الزبون.

سابهم المعلم يقولوا أي كلام.. اللي قال: "ناولني حبة.. ترجعني شابة".. واللي قال: "إن شاء الله هنفوز ع الجزاير".. واللي قال: "زِهِقْت من الحجارة.. وهرجع للسوجارة".. بس فيه واحد مثقف عجبني قوي قال: "ممكن كياني.. يحرك لساني.. يصالح زماني.. يرجَّعني تاني.. أقولك: أجلص يا جزمة دماغي هتنفجر".. وواحد كمان كان بيمزج كلمة السر بالحُجَّة والبرهان.. وقال: "من حقي أهرَّبه.. ما هو غيري جربه".. فيه واحد في الآخر قال حاجة أنا مفهمتهاش بس لطيفة بردو: "لو راحوا على السودان.. يبقى هنا معدش أمان".. أي كلام.

طبعًا المعلم الكبير ما عجبوش الكلام ده..

"ما سمعناش كلمتك يا كبير".

طبعًا الكبير خد نفس تمام.. ونزل عليهم بالتجلّي وقال:

"أنا عايز كيس بودرة".

طبعًا فكرة تستاهل.. كده محدِّش هيشُك أبدًا إنك جاي تشتري بانجو.. يا دماغك.. وكيس مرة واحدة.. شغل على تقيل.. بتاع التجار الكبار.. دي هي بداية النجاح.

بس بردو الرجالة مفهموش حاجة...

***

أول زبون بصراحة كان شكله كده ابن ناس.. شاب نضيف مصروف عليه.. بس واضح إنه كان شارب حاجة من العيلة قبل ما ييجي علشان يشيل.. كان مسطول خلقة.. دخل وقال:

"عايز كيس بودرة".

"عينيَّا".

"بس بص.. أنا مش عايز كيس بودرة أنت فاهم؟"

"فاهم.. فاهم"..

"يعني أنا بقولك عايز كيس بودرة.. بس أنا بقولك كده علشان أنا عايز حاجة تاني غير كيس البودرة.. يعني فاهم أنت؟"

"فاهم يا سيدي قولنا".

"أوعى تجبلي كيس بودرة.. والله ما أدفعلك مليم".

"يا عم اخْلَص".

"يا عم متزُوِئش كده.. والله شكلك غبي وهتجبلي بودرة.. أنا مش عايز بودرة.. أنا عايز بانجو.. بااااااااانجو"...

طبعًا أخينا سَكّته بالعافية.. وما ارتاحش غير لما خدني معاه وعليَّا كيس بودرة ببلاش.. وبرضو مش عاجب:

"أنا باين أضّحك عليَّا ولا إيه؟"

طبعًا ده عمِّنا الشاب الكوول.. خد حاجته وطيران على بيت صاحبه (سامح) اللي كان مستنِّيه مع الشلة.. شلة زبالة الحقيقة.. نص قعدهم ترجيع في الحمام.. أخينا ده كان اسمه (ظاظا).. بصراحة لحد ما خلصت القعدة وأنا معرفتش اسمه الحقيقي إيه.. كله بيقوله يا (ظاظا).. المهم إن الأخ (ظاظا) خد مني النفس المتين وبعدها دخل على النت يشيِّت.. جنبه الواد (أسامة).. ده بصراحة الوحيد فيهم اللي شكله مدِّي على مبيِّض محارة.. بس كان برضوا عايش دور الشاب الكوول وماشي الحال.. قال لظاظا وهو بيضحك:

"يا عم راحت عليه ده.. الموضة دلوقت هي الفيس بوك".

"مش بفهم فيه".

"يا عم مش محتاج بدماغك دي.. فسَّح بس".

طبعًا قعد يعمله شوية حركات على الفيس بوك.. وعمله أكونت.. بعدها بقى قاله إنه لازم يعمل جروب.

"جروب؟!"

"أيوه.. علشان تلم الناس حواليك وتعيش.. حاجة لذيذة فحت.. بس المهم تختار فكرة جديدة وحلوة للجروب بتاعك".

ساعتها بقى عمنا الثالث اتكلم.. كان قاعد بيلعب بلاي ستشن.. بس برضوا حب يشارك.. قال:

"دعونا نكره تامر حلمي"..

"يا سلام عليك يا سيدي.. بس العنوان واقع قوي"

"خلاص.. يبقى دعوة لحلق شعر صدر تامر حلمي".

"مش قوي".. .

"خلاص.. يبقى دعوة لنتف شعر صدر تامر حلمي".

"ممم.. وممكن دعوة لحرق شعر صدر تامر حلمي".

"أو دعوة لحلق دقن تامر حلمي"..

"مع إنه مش الموضوع بس ممكن.. بس إحنا عايزين حاجة جامدة.. حاجة تلم الناس".

"خلاص.. خليها بنموت فيك يا تااامر"...

"هو ده.. حقيقي مش بطّال.. وهيجيب ناس".

"حلو تمام.. بس هو كان اسمه تامر حلمي؟!.. مش عارف"..

المشكلة إن أنا بانجو.. وبانجو قديم كمان.. بس الناس دي بجد سطلتني...

***

الزبون التاني رَوَشْني لأنه كان مستعجل شوية...

"عايز كيس بودرة.. اخلص ورايا امتحان"..

"اخلص ورايا امتحان؟.. لا دا عند المعلم سباعي آخر الشارع.. بس غالي حبّتين"..

"يا أخي أنا ورايا امتحان فعلًا.. يخرب بيت كلام السر الملخبط بتاعكم".

"طيب امسك.. امسك".

الزبون ده بقى كان اسمه (سامس).. الناصح كان جايبني أعملُه دماغ ليلة امتحانه علشان يعني يعرف يذاكر.. الحقيقة ده مش تخصُّصي.. بس هو أدرى.. والزبون دايمًا على حق.. المشكلة إنه أصر ياخد نفسين قبل ما يروح اللجنة.. وطبعًا خد مني النفسين ووديّته أنا آخر العمرانية.. راح عمّنا اللجنة قبل الامتحان بدقيقتين.. وأنا كنت مريَّحة في دماغه الكريمة...

وطبعًا أول ما مسك الورقة بدأ الشغل بتاعي يبان...

"إيه ده؟.. يا ولاد اللذينة.. من أوّلها كده غدر؟.. مش دي المادة اللي علينا النهاردة!!!"

"لا لا لا لا.. دي المادة دي كمان مش علينا السنة دي.. دي كانت السنة اللي فاتت.. شكلي كده هرجع للإجرام تاني الناس دي مبتجيش بالذوق"..

طبعا عرفت إني تقلت عليه فسبته شويه لدماغه يفكر...

"لا لا لا.. أستغفر الله العظيم.. إن بعد الظن إثم.. المادة دي أنا شايلها من السنة اللي فاتت..صح كده..بس مش دي المادة بتاعة النهاردة".

طبعًا لما قلبت في دماغه عرفت إنه خلص الكلية.. وأنه مش شايل غير المادة دي.. وهي اللي فضلاله.. مش عارفة الحقيقة اللخبطة جاية منين.. الله يخرب بيته البانجو!!!!

طبعًا بعد خمس دقايق عرف العريس إن الليلة مش ليلته.. وبدأ الشغل بتاع السبعينيات يشتغل.. زمن الفن الجميل:

"لو سمحت.. عايز أروح الحمام".

"اتفضل".

راح.. نص ساعة ورجع تاني..

"لو سمحت.. عايز أروح البرشام..!!.. الحمام".

"تاني؟"

"معلش عندي إمساك".

"خليك مكانك بلاش الشغل دا".

طبعًا فكر وقرر.. وطبعًا أنا ساعدته في قراره ده.. قرر يستغل الزحمة والعدد الكبير ويطلّع البرشام من الشراب.. طلع أول برشامة وبدأ ينقل...

فجأة لقيته بينادي على المراقب.. هتعمل إيه يا أهبل.

"لو سمحت.."

"عايز إيه؟"

"الكلمة دي.. مش عارف اقراها"..

"إيه ده؟.. برشام؟.. عايزني أقرالك البرشام.. نهارك أسود.. ثم إيه البجاحة دي يا واد؟.. اللجنة مفيهاش غير ثلاثة طلبة وأنا في وِشُّكم وبتطلع برشام؟"

"يااااااه.. دا اللجنة على كده طلعت فاضية غير ما أنا كنت فاكر!!!"

الغريب إن المراقب لما هدِي شوية سابه وقاله كلمة غريبة مفهمتهاش:

"يعني هتعمل إيه بالشهادة والامتحانات؟.. ما في الآخر هتشتغل في المحاميل زي الواد (محمد) ابني الكبير.. انقل يا ابني الله يسهلّك".

"شكرًا يا بيه.. بس برضو الكلمة دي مش عارف اقراها!!"

طبعًا فكتني من أخينا ده.. واضح إن دماغه أصلًا كده.

***

الزبون الثالث لما شوفته اتفزعت.. البيه كان موظف.. مكونْتش أعرف إني بقالي زباين موظفين.. واضح إن المستوى هيبتدي ينزل وهعيش هنا تحت خط الفقر.. بس غلابة برضو ولازم نوجِّب معاهم...

الغريب إنه كان كبير في السن.. كان حوالي خمسة وأربعين سنة.. وكان طالع عليه عفريت اسمه "أنا جتلي الذبحة منين.. دا أنا كل يوم باجري ورا الأتوبيس ساعتين رايح وساعتين جاي.. كل اللياقة والصحة دي راحت فين؟"

طبعًا من ساعتها نصحه الدكتور مفيش أتوبيسات.. آخره دلوقت يركب المترو.. أو يتشعلق في توك توك.. طبعًا عمّنا اللي اسمه (سيد) ملقاش قدامه غير المترو.. ولأنه مكانش يعرف إن المترو مش أقل أهمية من الأتوبيس.. وإنه محتاج نفس القدر من اللياقة.. بالإضافة طبعًا لعنصر الليونة والمرونة.. فكان دخوله في أول مرة شديدة الخطورة.. لما نزل بقى لقى الباب قفل على ذيل الجاكتة.. طبعًا لولا واحد (ابن حلال) كان معاه مطواة قرن عرف يلحقه على آخر لحظة ويقطعله الجاكتة.. بس طبعًا سلّك الساعة وهو ماشي!!!

شرب عمنا مني نفس في التاني.. وقرر إنه هيدخل المترو.. بأي طريقة...

إدّيته شوية أفكار.. والراجل طبعًا نفّذ.. أول يوم وقف مستني وهو شايل جردل ميه طرشي.. وأول ما فتح الباب دخل عليهم وهو بيزعق:

"أوعى ميه الطر..."

المشكلة إن محدش سمعه.. وقبل ما يتكلم كان اتشال من على الرصيف مترين.. كان صعب يقف قدام الجماهير.. علشان كده قرر في تاني يوم إنه يثبِّتهم.. أول ما اتفتح الباب طلع مطواة ورفعها في وش الناس قبل ما حد يترل:

"خليك مكانك منك له.."

فرح على الآخر لما لقاهم رجعوا لورا.. وحط مطواته في جيبه علشان ينط..بس قبل حتى ما يركب كان باب المترو قفل في وشه وثانية ولقاه طلع.. طبعًا عمِّنا جاله إحباط وقرر يقضيها تكاتك.. بعد أسبوع لقى الموضوع مش جايب همه.. قرر يقدم استقالته.

بعده بيومين فتح محل علشان مستلزمات المحاميل.. جنب الواد (محمد)!!!

***

الزبون الرابع ده كان شاب زي القمر.. حاجة تفرح.. كان لابس تي شيرت أبيض وشايل علم في إيده.. كان رايح يشجَّع في الاستاد.. وكان مش بيرتاح غير لما يأخد مني نفسين قبل كل ماتش يروحه بقاله سنين.. كان بيقول: "أنا

زملكاوي.. ورايح أشجع في الاستاد.. ومحتاج أعمل دماغ في الليلة السودا دي".

طبعًا أنا مكنتش فاهمة منه حاجة.. بس أنا عملت اللي عليًا وإديته الدماغ اللي هو عايزها وبزيادة شوية.. يمكن علشان كده عملُه حادثة بعربيته وهو لسه ماشي رايح الاستاد.. راح أخينا اتنرفز وقال:

"يا دي النيلة.. هو ده بقى اللي بيقولوا عليه عنصر التوفيك وعدم التوفيك".

كان قصده التوفيق بس الموضوع بقى صعب معاه حبتين...

خمس دقايق وتششش...

"لا.. النهاردة عنصر الخبرة بيتفوَّق على الشباب مش نافع كده"..

ربع ساعة وتشششششششش...

"دا كتير.. فين اللمحات الفنية.. فين؟"

ثلاث دقايق وترااخ...

"تااااااكسي.. الاستاد يا أسطى؟"

طبعًا المرة دي فكر بعقل.. ورحم نفسه من الليلة الثقيلة دي.. وطبعا وصل الاستاد متأخَّر وقعد ساعتين بيدخل في

بوابات غلط.. لحد ما ربنا سهل.. علشان كده اتأخر على الماتش حوالي خمس دقايق...

أول ما دخل لقى الواد (ياسر) صاحبه.. قاله:

"إيه الأخبار؟"

بص لياسر لقاه مش بيرُد والدموع مغرَّقة عينيه.. سأله وهو بيضحك:

"في إيه يا ياسر؟ دا الماتش لسه بادئ.. مش معقول يكون دخل اجوان!!!"

(ياسر) مش بيرد.. وبدأ صوت النهنهة.. كان بيعيَّط بجد.. عمّنا قلق وسأله:

"مش معقول يعني يا ياسر.. هو دخل اجوان ولا إيه؟.. دخل اجوان؟"

لقى (ياسر) بيعض شفايفه ودمعته على خده.. فمسكه وقعد يهزه زي المجنون:

"دخل اجوان؟.. اتكلم.. ساكت ليه.. دخل اجوان؟"

انهار (ياسر) على الآخر وقعد يبكي بحرقة.. ومن بعيد سمع عمّنا صوت واحد غضبان مهزوم بيقول:

"يا عم يا اللي بتحعَّر كفاية.. أيوه يا سيدي.. النتيجة دلوقت ٢-٠.. وإوعى تسألني لمين..."

طبعًا الواد اتجنن.. فجأة طلَّع المطواة - مش عارف ليه البلد دي مليانة مطاوي - وزعق في الجماهير:

"وقاعدين؟..كلُوا على بره.. محدش هيقعد في المدرجات واللي هيفضل قاعد هشرحه.. إحنا كلنا نطلع نستنى جماهير الأهلي بره وراجل لراجل.. هنعقد هنا نعمل إيه؟"

"يا عم أنت الزمالك مش بيلاعب الأهلي أصلًا"..

"يبقى نستنَّى أي جماهير والسلام يا معلم"..

طبعًا الناس سابوه في حاله.. وكملوا فرجة.. أما هو فجري على أرض الملعب.. كنت فاكراه نازل يشجَّع.. بس الحقيقة إنه كان بيقول:

"أنا جاهز أهو ولابس الفانلة.. أنا نازل ألعب.. هنعوَّض وهنكسب بعون الله"..

طبعًا مسكوه رجال الأمن قبل ما يترل (يلعب).. وطبعًا أنا ملحأتش أستخبَّى.. يعني كده القضية كملت..

لو كان على كده بسيطة.. المشكلة إنه بعد أسبوع جالي واحد لابس أحمر.. وكان متوتر وبيتكلم عن إفريقيا.. و"نتهزم

تاني".. وحاجات كده.. شوية كمان وجهْ واحد لابس أحمر برضو بس فانلة مختلفة شوية.. وكان متوتر أكتر وقعد يبرطم ويقول كلام كتير عن حاجة اسمها "تصفيات"..

مش عارفة إيه الألوان التانية عندهم هنا؟

***

الزبون الخامس كان.. كان إيه؟!.. مدرس إعدادي؟.. لا.. بصراحة دا جديد عليا الموضوع ده.. على العموم مهم إن يكون فيه أوساط مثقفة علشان الصنف يتطور...

طبعًا الأخ كان مزنوق في كام مشكلة كده وعايزني أحلهم.. مش عارفة إيه الطلبات الغريبة دي.. على آخر اليوم كان جامع ولاده الأربعة علشان قرر يحل كل مشاكله:

"أنت يا (حسن) كنت عايز إيه؟"

"عايز مصاريف المدرسة يا بابا".

"وأنت يا (هيثم)؟"

"عايز جزمة جديدة يا بابا".

"وأنتِ يا (ميرفت)؟"

"عايزة فلوس الكتب يا بابا".

"وأنتِ يا (سعاد)؟"

"عايزة جيبة وشنطة يا بابا".

فكّر عمنا يجي نص ساعة.. وحاولت أساعده لوجه الله.. بس بجد الموضوع كان صعب.. المهم إنه بعدها قال:

"أنا دفعتلك مصاريف المدرسة يا (هيثم)؟"

"أيوه يا بابا"..

"تمام.. يبقى هنقل (حسن) مدرستك مكانك.. كده هو كأني دفعتله المصاريف.. أنت مش هتحتاج جزمة.. لأنك أصلًا مش هتروح المدرسة!!"

"بس يا بابا....."

"اخرس يا واد.. أنا ما صدّقت تتظبط في مخي.. أما أنتِ يا (سعاد) فأنا هدّيكي فلوس الجيبة والشنطة.. مبسوطة؟"

"متشكرة يا بابا"..

"علشان تشتري بيها كتب أختك!!!"

"يا بابا...."

"بس يا بنت.. قشطة.. أخيرًا اتحلّت.. الله عليًّا.. ولا كلمة زيادة بقى خلوني أعرف أنام بمزاج"...

وطبعًا افتكر مساعدتي له وقال:

"الله عليكي"...

طبعًا كان بيتكلم عليّا..

يالّه إحنا بنعمل الخير...

***

فيه زباين كده ميريحوكش.. زي أخينا السادس ده.. كان لابس ومتشيِّك وعامل شعره على الموضة.. بس كان متوتر حَبّتين..

"إديني كيس بودرة".

ودفع وف ثانية كان خلع...

أخينا بقى طلع حاجة مهمة.. فتح نِفْسي.. لأنه كان راكب عربية آخر موديل وداخل على مكان شيك فرز أول.. أول ما دخل لقيته قاعد يسلم على الناس في كل حتة.. وف ثانية كان داخل مكان إنما حاجة تمام.. حسيت إن دي أول خطواتي للنجومية.. واتفائلت بيه خير..

كان النور ضارب في كل حتة.. وفجأة لقيت كاميرا داخلة على وشه.. وصوت زبالة آخر حاجة بيصرخ:

"هوووووووووووووا!!"

مش عارف أول ما أحينا لقى الكاميرا في وشه إيه اللي جراله.. فجأة لقيته اتكهرب ونط في الهوا وقال:

"أهلًا بيكم في مسابقتنا.. في مسابقتنا هتكسبوا فلوس كثير.. يعنى إيه فلوس؟.. يعني مالي.. يعني ثروة.. يعني بنكنوت.. يعني تستحمَّى وتِنْضَف بدل ما ريحتك تبان.. يعني تشتري جزمة بدل ما تمشي حافي.. يعني تشترى موبايل بدل ما تنادي على صحابك من البلكونة.. يعني تجيب سبَّاك بدل ما تغرَّق هدومك وريحتك تبقى مش قد كده.. ويعني إيه كثير؟.. يعني ماتش.. يعني فحت.. يعني تتصلوا بينا عمَّال على بطَّال علشان تحلُّوا فزُّورتنا".

يخرب بيت دماغك.. أنا وقعت في شلة مجانين ولا إيه؟!!.. يا خسارة سمعتي في السوق يا ولاد..

"النهاردة عايز كل أصحابي يكلموني.. من مصر والإمارات.. من المغرب من عمان.. ويا ريت كمان من السودان"...

وطبعًا طلبت معاه رقص:

"البانجو!!.. المامبو السوداني.. المامبو في كياني!!"

"يالّه كلموني.. مسابقتنا عن حاجة أوّلها ألف ومش بتتاكل.. يا ترى إيه؟.. افتكر.. فلوس.. فلوس.. وكمان في رحلات كثير لأماكن عمر أهلك ما سمعوا عنها.. الموضوع يستاهل.. اتصلوا بقى.. أنا خلاص هاخرج عن شعوري".

"معانا تليفون"..

"أيوه يا زيزو.. أنا بموت فيك.. أنت مش عارفني؟"

"مين يا عسل؟"

"أنا (سوسو) من المعادي".

"(سوسو).. تحية كبيرة للمعادي ولكل أهل المعادي.. يا ترى الإجابة إيه؟"

"لا أنا مش أعرف إجابة.. أنت بس وحشتني يا قمر.. قلت أكلمك".

"تمام تمام.. سيبي نمرتك في الكنترول".

ولقيته قعد ساعة ونص قدام الكاميرا بيضحك.. بيضحك بس من غير كلام.. طلع المخرج بيكلمه في الإير بيس.. وطبعًا الناس قاعدة مش فاهمة حاجة..

طبعًا كتّيت من الزبون في ساعتها.. الموضوع شكله كبير.. يا عم سُمعتي.. هوَّ لعب عيال؟!!!

***

الزبون السابع كان صحفي ما شاء الله.. حقيقي أنا بدأت أحس بنفسي وبأهميتي للناس هنا.

طبعًا طلع معايا.. ظبَّط نفسه وجري على الجرنال.. نط على مكتبه بيستعد علشان يكتب عموده اليومي.. مع إن الساعة متأخَّرة...

سأله زميله بالقسم الرياضي:

"يخرب بيتك.. لحد دلوقت مكتبتش؟.. مش هتلحق كده الطبعة الأولى".

"أعمل إيه بس؟.. لسه موصلتليش أخبار أكيدة إذا كان الوزير إياه هيتشال في التغيير ده ولا لأ؟"

"وافرض يا أخي.. أنت لسه صغير؟.. ما أنا كمان المفروض اكتب عن ماتش (مصر).. ولسه الماتش مخلصش".

"طب وعملت إيه؟"

"أخويا بتاع القسم الفني علمني حركة كان بيعملها علشان يبقى أول واحد يكتب عن الفيلم بعد مينزل بساعة".

"إزاي؟"

"أنا كتبت مقالين.. واحد لو المنتخب كسب.. وده بيتكلم عن إنجازات المدرب الوطني ونجاحاته مع المنتخب من زمان..

والفلوس اللي كانت بتضيع على المدربين الأجانب المستهترين.. وبتكلم عن التوليفة الحلوة ومزج الخبرة بالشباب وخلافه.. لو خسر المقال التاني موجود.. وده بيتكلم عن إن منتخب مصر اسم كبير.. وإنه محتاج لمدرب عالمي ممكن يضيف للعبية ويقدر يسيطر علي النجوم.. وده مش موجود في المدرب الوطني.. وكمان اتكلم عن التعسف الواضح في عدم الاستعانة بلعِّيبة معينة.. لوجود مشاكل شخصية جت على مصلحة المنتخب.. وارتفاع أعمار اللاعبين وخلافه.. كده يا معلم"..

"يعني أنا كده أكتب مقالتين.. واحدة عن الفرحة بتجديد الثقة.. واكتب شوية عن نجاحاته.. والتانية أفضحه فيها فضيحة خالتي أم تتح؟"

"أنا بصراحة معرفش خالتك أم تتح.. بس لو فضيحتها على مستوى الحدث اتكل على الله"..

طبعًا هو كان فاكر نفسه دماغ.. بس أنا كنت عارفة إن أخينا التاني ده هو كمان شارب حاجة من العيلة.. الدماغ دي مش دماغه أبدًا.. أنا أعرفها من بين مليون دماغ.

***

أما الزبون الأخراني ده فكان واضح إننا هنبقى أصحاب.. الأخ طلع مؤلف.. مش بس مؤلف.. دا كمان كان معجب بيًّا على الآخر وقرر إنه يكتبلي مذكراتي...

مذكرات سيجارة بانجو.. حلو والله...

كتّاب آخر زمن...

ياألّه..

خليه ياكل عيش...

الفهـــــــرس